
وحي العزلة
أمينة السعيد

# وحي العزلة

## تشارلوت برونتي وإخوتها: حياتهم وآثارهم الأدبية

أمينة السعيد

# وحى العزلة

« لبعض النساء إرادة قوية تزيح الجبال ، »
« وهذه القوة هى التى أخرجت آدم من الجنة »
ر . ويلسون

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف
بمصر

# الإهـــداء

إلى أختى كريمة السعيد . .

. . مع أخلص عبارات المحبة والولاء والتقدير

أمينة السعيد

# كلمة قصيرة

فى هذا الكتاب قصة أليمة لأسرة موهوبة ، عاش أفرادها منذ الطفولة فى عزلة ووحشة ، وحُرموا نصيبهم من السعادة والرعاية والثقافة ، ومع ذلك هبط الوحى واقتحم عليهم عزلتهم ، فاستجابوا لنداء العبقرية ، وقدموا إلى الأدب الانجليزى درراً ستظل أبد الدهر خالدة .

طفوله باكية . . . .

شباب قصير حزين . . . .

أدب رفيع . . . .

مجد لم يطرب أصحابه . . . .

نهاية مفجعة محزنة . . . .

هكذا تتلخص حياة تشارلوت برونتى وإخوتها ! .

أمينة السعيد

## ١

لأسرة برونتى تاريخ قديم يرجع إلى عدة أجيال ماضية ، ولقد تذوق أفرادها المجد وعرفوا السؤدد والجاه ، ثم دارت الأيام دورتها فأدبر المجد وذهب الجاه ، وخيم الفقر وحل الشقاء . وفى منتصف القرن الثامن عشر كان هيو برونتى سليل تلك الأسرة العريقة يعيش فى بلدة صغيرة بأرلندا مزارعاً بسيطاً يكتسب رزقه بكد ذراعيه ، فلا يكاد هذا الرزق يفى نفقات كوخه الضامر أو مطالب أولاده الصغار . وأمعنت الأقدار فى قسوتها ، فتضاعف عدد أولاده ، و بلغوا العشرة بعد سنوات معدودات !

ولد پاتريك — أكبر هؤلاء الأولاد — فى اليوم السابع عشر من شهر مارس عام ١٧٧٧ ، وامتاز منذ طفولته بذكاء حاد ، وخاطر سريع ، وطموح شديد ، و إرادة حديدية ، فضلاً عن حسن فريد ، وقامة فارعة ، و بنية قوية ، وتقاطيع نبيلة جميلة . وطبيعى أن يتطلع مثل هذا الصبى الموهوب إلى مستقبل باهر وحياة واسعة ؛ فرغب عن الزراعة وفنون الحقول، وأقبل على المدرسة بشغف شديد . وعندما بلغ السادسة عشرة انفصل عن أسرته واستقل بحياته ، وافتتح مدرسة صغيرة يتعيش منها ؛ وظل يدير

هذه المدرسة ويرعاها سنوات خمسا ، فلم تتحقق آماله ، ولم يتسع الأفق أمامه ، وظل كما هو مدرساً قروياً صغيراً .

ويقولون : إن مهنة التدريس — بمحيطها الضيق وميدانها الصغير — تقتل الطموح ، وتخمد الآمال ؛ فإن تحقق هذا القول، فقد تدارك باتريك برونتى الأمر قبل فوات الأوان : إذ عندما أحس أنه سيعيش ويموت فقيراً مغموراً هجر المدرسة فى الحال ، واشتغل مربياً فى أسرة فاضلة . وعلى مر الوقت عاوده السأم ، وتحرك طموحه من جديد ، فاتخذ خطوة حاسمة لتهذيب مواهبه وتنمية مداركه ؛ فهجر العمل والامتهان ، وعاود حياة التلمذة ، والتحق بجامعة كمبردج وهو فى الخامسة والعشرين من عمره . .

ولم يتوصل أحد من المؤرخين إلى معرفة حقيقة البساط السحرى الذى بفضله انتقل باتريك برونتى من القرية إلى الجامعة : فوالده مزارع فقير لا يكتسب ما يفى بمطالب أسرته الكبيرة ، وراتب باتريك ضئيل لا يسمح باقتصاد جزء من نفقات كمبردج الباهظة . وتساءل الناس طويلا ، وعجبوا كثيراً ، فما أفادهم التساؤل والعجب شيئاً فى كشف الوسيلة التى مكنت الارلندى الوسيم من النهوض بحياته ومستقبله . ولم يشأ هو أن يوضح الأمر أو يفسر اللغز ، واكتفى بأن جمع متاعه فى صمت ، وغادر مسقط رأسه إلى الأبد ؛ وبعد سنوات أربع تخرج بنجاح ، ورسم قساً فى أبراشية وذرفيلد بأسكس .

وهكذا هبط على وذرفيلد قس جميل الشكل ، مهيب الطلعة ، أنيق

المندام ، فخفقت قلوب النساء ، واجتمعن حوله يخطبن وده ، ويتنافسن فى نيل رضاه . وزاد فى نجاحه ما أبداه من جرأة وشجاعة ، وما عرف عنه من جد ونشاط ؛ ولم يمض وقت طويل حتى أنشب الحب أظافره فى قلبه ، فسقط صريع هوى مارى بيردر الحسناء ؛ وتقدم للزواج منها ، فقبلته فرحة مغتبطة . ويقال : إنه أمطرها وابلا من الخطابات الحارة الملتهبة كانت تقرؤها ثم « تستسلم بعدها إلى تفكير شديد » !

وفجأة قلب برونتى للحبيبة ظهر المجن ، ففسخ الخطبة دون مبرر ، وهجر المكان وانتقل إلى يوركشير ، واشتغل قساً فى أبراشية هارتشد . وهبط الوحى عليه هناك ، فنظم الأبيات وقرض الشعر ، وطبع قصائده فى مجلدين ، ولما لم يقبل أحد عليها طلق النظم والقريض ، ولم يعد إليهما بعد ذلك . وفى خلال إقامته عرف ماريا برانويل ، فأحبها وتعاهدا على الزواج .

وماريا برانويل هى الابنة الثالثة لتاجر فاضل فى بنزانس ؛ واشتهر والدها طوال حياته باليسر ، وطيب العنصر ، وكرم الأصل ، مما سهل له ولأسرته سبيل الاتصال والاختلاط بخيرة أفراد المجتمع . ونشأت الفتاة فى جو من الرخاء والاحترام ، وعند ما بلغت سن الشباب أسرت القلوب بتقواها الصادقة ، وأخلاقها الكريمة الهادئة ؛ ولم تكن ماريا على قسط كبير من الجمال ، ومع ذلك تجمع حولها الرجال ، وأعجبهم منهم حياء شديد ، وأنوثة طاغية ، وجسم صغير نحيل . وجاءت الآنسة الصغيرة إلى هارتشد فى زيارة قصيرة ، فرآها القس الأرلندى الوسيم ، واستسلم للحب ثانية ، ودعاها لأن تقاسمه حياته ، فقبلت فى الحال .

وأصاب برونتى الهدف هذه المرة : فماريا فتاة فاضلة كريمة الأصل عرفت منذ طفولتها بالحكمة والتعقل ، ولذلك احتلت بين أفراد أسرتها مكانة ممتازة . قالت فى خطاب منها إليه :

« منذ سنوات وأنا سيدة نفسى ، ولا رقابة على من أى نوع ؛ وقد اعتادت شقيقاتى اللواتى يكبرننى بسنوات عدة ، وكذلك أمى العزيزة أن يسترشدن برأيى فى كل أمر هام ، ومن النادر أن يتشككن فى حكمى أو تصرفاتى .

« قد تتهمنى بالغرور لهذا القول ، ولكن ثق أننى لا أرمى إلى تفاخر أو مباهاة ، وفى مناسبات عدة وجدت فى موقفى هذا ضرراً ومضايقة ؛ ومع أنى — والحمد لله — لم أندفع يوما إلى الخطأ إلا أننى كنت أشعر دائماً بحاجتى الشديدة إلى مرشد وقائد . . . »

ولاشك أنها وجدت فى خطيبها القس ذلك المرشد الذى تبحث عنه : فهو راجح العقل بحيث تستطيع أن تطأطئ رأسها لرأيه احتراماً ، وهو أيضاً قوى الجسم طويل القامة تحس إلى جواره — وهى المرأة النحيلة الضئيلة — بالقلة والضعف . وخلب حبه فؤادها ، وملأ نفسها بالرضا والسعادة ، فلم تحاول أن تخفى حقيقة مشاعرها عنه ، بل جعلت تصف تلك المشاعر والإحساسات فى خطابات ممتعة رقيقة تدل على روحها الشاعرة ، وأسلوبها الأدبى السلس ، وإخلاصها العميق الفطرى ، وشغفها بذلك القس الأنيق . قالت فى خطاب إليه :

— « واعترف صراحة أن تصرفاتك الحكيمة ، وما رأيته منك ، وما سمعته عنك يملأ قلبي بتقديرك الصادق ، واحترامك العظيم ؛ فثق أنك لن تندم يوماً على ثقة أودعتنيها ، وسيكون هدفى فى الحياة دائماً أن أحتفظ برأيك الطيب وحسن ظنك فى .... »

وفى خطاب آخر تقول .

— « لو عرفت إحساساتى وأنا أكتب هذا الخطاب لأشفقت على ، فأنا أريد أن أسجل الحق لأرضيك ، ومع ذلك أخشى أن أقول أكثر مما يجب .... »

وهكذا ظل الحبيبان يتراسلان ، ويحلمان بسعادة دانية ، وحياة قريبة راضية ؛ ودلت الشواهد على أنهما لا يبالغان كثيراً فى هذه الأحلام : فهى تملك ثروة يبلغ إيرادها خمسين جنيهاً فى العام ، فإذا أضيف هذا المبلغ إلى راتبه توافرت ضروريات بيتهما الزوجىّ المنتظر . فضلا عن أن ماريا تملك الكثير من الثياب الفاخرة ، والرياش الجديد ، والأدوات المنزلية الجيدة ؛ فهى إذاً فى غير حاجة إلى تبديد نقودها فى تأثيث البيت وإعداده . وأرسلت إلى بنزانس تستحضر هذه الأشياء ؛ ولكن تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن كما يقال : فنى ذات يوم جلست الخطيبة تقرأ فى لهفة وإعجاب قطعة نثرية ألفها الحبيب الوسيم ، ورسم فيها صورة خيالية لسفينة تتحطم بين الأمواج ، وبينما هى مكبة على ذلك إذ وصلتها رسالة من شقيقتها تقول : إن السفينة التى أبحرت وهى تحمل الحاجيات الثمينة المرتقبة ، قد

تحطمت على شواطىء ديفونشير ، وابتلعها اليم بما تحمله . وكأن الأقدار قد أرادت أن تتجسم القطعة الأدبية التى ألفها پاتريك برونتى ، لتعيد خطيئته قراءتها وهي تذرف دماً هتوناً !

وعلى الرغم من الحادث المؤسف تم الزواج فى اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر عام ١٨١٢ ؛ وبهذا الزواج غادرت ماريا برانويل مسقط رأسها ، ولم تعد إليه بعد ذلك ؛ ولكنها تركت وراءها أثراً جميلا عظيما ظل واضحاً حياً فى قلوب الأصدقاء والأقارب سنوات بعد وفاتها : فلقد أسرتهم بأخلاقها الفاضلة ، وصفاتها النبيلة ، وتطلع الكل إليها سيدة عالية لها من المواهب ما تفوق به الشخص العادى ؛ و بدأت حياة جديدة قصيرة مليئة بالآلام ، لم يتحقق خلالها شيء من الأحلام الماضية البهيجة ، وقدر عليها أن تنجب أكبر عدد من الأطفال فى أقصر مدة ممكنة .

وعاش الزوجان فى أبراشية ديوزبرى بهارتشد؛ وفى العام التالى للزواج رزقا بابنتهما الأولى ماريا ، ولم يمض عام آخر حتي ولدت الإبنة الثانية اليزابث . ولم يكن مستر برونتى شغوفا بالأطفال ، ولذلك ضايقه أن يقتحم حياته كل عام مولود جديد ؛ فاعتكف فى مكتبه، وعاد إلى أحضان الأدب عسى أن يخفف بلواه ، وألف كتاباً جديداً اسمه ( كوخ الغابة أو فن السعادة والغنى ) . وطبع هذا الكتاب ونشر سنة ١٨١٥ ؛ وفى العام نفسه رقى وانتقل إلى أبراشية برادفورد فى ثورنتون .

وكانت الحياة فى ثورنتون غيرها فى هارتشد ؛ فالبلدة مليئة بالبيوتات

الفاضلة الراقية ، ومستوى الثقافة أعلى كثيراً ، و باستطاعة قس ذكى طموح أن يجد فيها من الأصدقاء والصديقات ما يملأ فراغ حياته ، وما يشبع أطماعه السياسية والأدبية . وفى هذا الجو الجميل سعد مستر برونتى ؛ وترك زوجه فى دار الأبراشية منهمكة فى إنجاب الأطفال ، وجعل يرتاد المجتمعات و يقبل الدعوات إلى حفلات الشاى والعشاء ، وتصادق هو ومستر چون فيرث وأخته الشابة الأنيقــة اليزابث . وفى كل مساء يجلس فى دارهم يتحدث بصوته الرخيم ، فترقبه اليزابث بقلب واجف و إعجاب شديد . أما مسز برونتى فقد قنعت بالعيش بين جدران الأبراشية تقوم بمهمتها فى نشاط تام ، وفى عام ١٨١٦ أنجبت ابنة ثالثة هى تشارلوت ، وفى عام ١٨١٧ ولدت صبياً اسمه برانو يل ، وفى عام ١٨١٨ أتت بأميلى ، و بعدها بسنة ونصف ظهرت الى عالم الوجود الإبنة الأخيرة آن ! ولم يقو جسد مسز برونتى النحيل على تحمل هذا الجهد الشاق ، فذبل وجهها ، وانحطت صحتها ، وظهرت عليها بوادر مرض خطير .

ولم تمض شهور معدودات على ولادة آن حتى نال مستر برونتى آخر ترقية فى حياته العملية ، وعين واقفاً لأبراشية هاوارث بالقرب من برادفورد ولذلك اضطر إلى هجر ثورنتون المرحة البهيجة . وحرمته هذه الترقية مجتمعاً ذكياً ومجالاً علمياً واسعاً ، وألقت به وسط جماعة من المزارعين الخشنين والعمال الجهلاء .

## ٢

فى يوم من أيام شهر مارس عام ١٨٢٠ وقفت عربة كبيرة أمام أبراشية هاوارث تحمل أفراد أسرة الوافد الجديد . وهبط منها السيد برونتى فى عظمة وجلال كأنه ملك يغادر عرشه ، ثم تبعته زوجه النحيلة ، ومن خلفها ستة أطفال لم تبلغ أكبرهم السابعة من عمرها بعد . ووقف الكل لحظة يتأملون الوحشة السائدة ، ويوازنون فى صمت بين هـذا المكان الخرب الرهيب و بين ثورنتون المرحة البهيجة ؛ ولكن أحداً لم يجرؤ على النطق بكلمة تفضح ما يجول بذهنه ، خشية إغضاب رب الأسرة الصارم الذى لايسمح لأفراد مملكته الصغيرة بتعليق أو اعتراض ؛ ثم دخلوا إلى دارهم الجديدة أو إلى منفاهم بعبارة أوضح ، ليعيشوا و يموتوا بين جدرانه السميكة فى معزل عن المجتمعات والناس .

وتقع قرية هاوارث فوق تل مرتفع شديد الانحدار ، وعلى مبعدة منها تقوم الابراشية وحدها كقلعة صغيرة من قلاع العصور الوسطى ، وتطل من ناحية على مقبرة الكنيسة ؛ ومن الناحية الأخرى على حانة بعيدة وضيعة

هى حانة « الثور الأسود » ، وتحيط بها براري[1] يوركشير الواسعة من كل الجهات ، فتعزلها عن العمران ، وتنشر عليها ظلاً من الكآبة والوجوم .

ودار الابراشية بيت حجرى عتيق : جدرانه سميكة رطبة ، وسقفه منخفض ، ونوافذه صغيرة ضيقة لاتسمح بدخول الشمس أو مرور الهواء . وهى تتكون من طبقتين تشمل الأولى مكتب الوافه وقاعة أخرى تستعمل للطعام والجلوس . أما الطبقة الثانية فتحتوى على أربع حجرات : إحداها صغيرة ضيقة خالية من الوسائل الصحية ، وليس فيها موقد يبعث الدفء بين جدرانها الرطبة ؛ وفى هذا المكان الكريه حشر الأطفال الستة ليناموا ليلا ويلعبوا نهاراً .

وشتاء هاوارث لانهاية له . فالثلوج تتساقط طيلة العام ، والأمطار تنهمر معظم أيام السنة ، والرياح والأعاصير تهب دائماً ، وتضرب الجدران الحجرية فتردد البرارى صداها فى أنين طويل . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تكف الأمطار ، وتهدأ الرياح ، وتنقشع الغيوم ، فيهب نسيم رقيق ، وتشرق الشمس ، ولكن مثل هذه الأيام نادرة لايتمتع الناس بها إلا بضع مرات كل عام .

وهاوارث مرتع خصيب للأمراض والحميات ، وفي كل موسم يطبق عليها داء جديد يفتك بأهلها ، فتكثر المآتم وتتعدد الجنازات ، ويقال إن

(١) اخترنا في هذا الكتاب كلمة براري للدلالة على المورز — Moors — لا لأنها الترجمة الصحيحة للكلمة الانجليزية وإنما لوجود بعض الشبه بينهما .. والمورز أراضى واسعة قاحلة تنمو بها بعض الحشائش القصيرة وتوجد في مقاطعة يوركشير بانجلترا .





عدد ضحايا الحميات يبلغ مائة وخمسين شخصاً كل سنة ، وهو عدد كبير إذا عرفنا أن سكان البلدة ستة آلاف فقط .

وأهل هاوارث فقراء إلى حد ما : تعمل كثرتهم فى الطواحين الهوائية التى تنتشر فى هـذه البقعة ؛ وبالقرية حانوت صغير لبيع الضروريات ، ولكن شراء الكتب والعقاقير كان يتطلب السفر إلى بلدان أخرى . وهم خشنون بطبعهم لايحبون من يتدخل فى شئونهم ولو كان وافه الأبراشية ، ولذلك تصادموا هم والقساوسة السابقون ، وانتصروا عليهم ، واستطاعوا تغييرهم واحداً إثر واحد فى وقت قصير .

وفى هذا المكان الموحش الكريه استقرت الحياة بمستر برونتى وأسرته ، فتسلم مقاليد منصبه فى صمت ، وقام بواجبات عمله فى سكون ، ولم يقصر فى واجب منها ، ولكنه فى قرارة قلبه كان يحتقر أهل المنطقة لجهلهم وخشونتهم ويجدهم دونه مقاماً وذهناً ، ولذلك بقى على مبعدة ، ولم يعقد أواصر صداقات جديدة مع أحد ؛ ووافق سلوكه مزاج أهل المنطقة فاحترموه وبجلوه .

ولكن شعور الناس نحو الوافه الجديد لم يشمل الحب ، فقد كان شجاعاً جريئاً ينحاز فى السياسة والاجتماع إلى الرأى الذى يؤمن بصحته ، ولا يهمه بعد ذلك شعور معارضيه . وفى عهده اعتصب عمال الطواحين الهوائية لخلاف بينهم وبين رؤسائهم ، فأخذ المستر برونتى جانب المعتصبين لأنه كان يؤمن بعدالة قضيتهم . وساعدهم ليبعد عنهم غائلة الجوع والفقر ، وبذلك أثار كراهية أصحاب رءوس الأموال حتى تهددت حياته ، فاضطر إلى الخروج

من بيته مسلحاً ، واعتاد حمل السلاح منذ ذلك الوقت ، ولم يتركه بعد زوال الأسباب التي دعت إليه . ولم يكن التسلح مما يناسب الكهنوت ، ولكن الوافه الجديد كان بطبعه جندياً مجاهداً لا قسيساً وادعاً .

وكان مستر برونتي داخل بيته لا يقل جموداً عنه خارجه : ففي علاقته مع زوجه يتطلب الخضوع التام ، لأن المرأة في اعتقاده مخلوق وضيع حرمه الله معظم ميزات الرجل ، ولذلك وجب عليها أن تعيش لتطيع ، لا لأن تأمر . ولم يكن في الواقع يفهم النساء ، أو يبذل أي مجهود في سبيل فهمهن ، فأخذهن بظاهرهن ، ولم يسع يوماً إلى التغلغل فيما وراء هذا الظاهر ، ليكشف عما يعتمل في القلب من آلام وأحزان ؛ وما دامت زوجه صامتة فهي راضية ، ومادامت لا تشكو فليس لديها ما تشكو منه .

ولم يكن مستر برونتي يحب الأطفال ، أو يشغف بهم ، ولذلك ضايقه أن تفرض عليه زوجه ستة منهم في وقت قصير ، فكره الزواج ، وحقد عليه وحمله تبعات متاعبه ومضايقاته ؛ واعتبر جلوس الأطفال حوله مضيعة للوقت فاعتكفوا بعيداً ، وهم يحملون له رهبة في غير حب . وكان يحب أن يربي هؤلاء الأولاد تربية خشنة تقتل في نفوسهم حب الترف سواء في الطعام أو الملبس ؛ ويقال إن صديقة للأسرة بعثت إليهم هدية من الأحذية الصغيرة الملونة ، فألقى بها إلى نيران الموقد ، حرصاً على زهد أولاده وتبتلهم ، وهكذا فعل بثوب حريري لزوجته ! ولم يكن يسمح باللحم على مائدته ، ويقصر طعام أولاده على البطاطس والخضروات ، مما أضعف أجسامهم فماتوا جميعاً في

شرخ الشباب . وإنصافاً لمستر بورنتى نقول : إذا صح أنه قد فعل ذلك حقيقة ، فلم تكن القسوة دافعه ، بل المبدأ والعقيدة .

ومن سوء حظ الأطفال أن اشتد المرض بمسز برونتى ، وظهرت عليها عوارض السرطان ، فلزمت فراشها متألمة ، وأحست بخطورة حالتها واقتراب منيتها ، فأقصت الأطفال عنها ، حتى يعتادوا فراقها تدريجاً ، واقتصرت على رؤية زوجها فقط ، فتضاعف بؤسهم ووحدتهم ، وشعروا أنهم غرباء متطفلون فى منزلهم ، وانقضت أيامهم بين جدران الحجرة الصغيرة الضيقة ، واقتصرت نزهتهم على السير وحدهم فى البرارى الواسعة الممتدة .

وظلت مسز برونتى إلى النهاية عطوفة رفيقة ، لاتضايق من حولها بكثرة المطالب ، وتحتمل آلامها الجسيمة فى صمت ، ودون تذمر أو شكوى ، ولم تفارق الابتسامة ثغرها ، ولم يخفف الداء حدة حبها الشديد لقسها الصارم الوسيم . وبادلها مستر برونتى العطف والحنان ، وخدمها دون ملل أو كلال سواد الليل و بياض النهار ، أملاً فى شفائها ، و إنقاذ حياتها ، فلما ماتت فى شهر سبتمبر عام ١٨٢١ ، وتركته وحيداً مع جيشه الصغير اشتد به الحزن ، وزاد حقداً على الزواج ، وعلى البلهاء الذين يقعون فى شباكه ؛ كما أصيب بعسر هضم شديد ، اضطرمعه إلى مضاعفة اعتكافه ، وحرمان أولاده من الجلوس معه أثناء تناول الطعام .

وهمس الناس فى حانة « الثـور الأسود » وانتشرت الاشاعات فى هاوارث بأنها ماتت محطمة القلب من سوء المعاملة ، وصدق الناس هذه

الأقوال الكاذبة وتناقلوها ، ووصلت إلى آذان صغارها ، فأطرقوا واجمين، وازدادوا جموداً وابتعاداً عن والدهم .

ولو أن القدر أمهل مسز برونتى ، ومكنها من تربية أولادها ، والعناية بهم ، لتضاعفت كنوز الأدب الأنجليزى ، وتغير تاريخ حياة أولادها المنكوبين : فهدوءها العظيم ، ورقتها الشديدة ، وعقلها الراجح ، وعينها الثاقبة كانت — ولاشك — تمكنها من الحد من قسوة تشارلوت ، وانتشال برانويل من الفساد الذى تمرغ فيه ، ومن إنقاذ أميلى من الوحدة النفسانية التى ذهبت بإيمانها وسعادتها .

أصبحت الحياة بعد وفاة مسز برونتى لا تبعث على السعادة ، أو تدعو إلى التفاؤل ، فالأطفال الستة فى وحدة دائمة يقضون أيامهم بين الحجرة الصغيرة والبرارى الواسعة . وكانت ماريا — أكبرهم — فى الثامنة من عمرها صامتة هادئة مما لا يناسب سنها ، لها من الذكاء والحكمة ما لا يتوافر فى الشباب ، ولعل السبب فى ذلك أنها اضطرت فى سن مبكرة الى معاونة أمها فى الأعمال المنزلية ، والعناية بإخوتها خلال مرضها ، وبعد وفاتها . وماريا فتاة نحيلة الجسم سقيمة البنية ، وكانت كبقية إخوتها لم تتمتع بطفولة حقة ، وأقتصرت حياتها على المحيط الصغير الذى تعيش فيه ؛ ووجد الأطفال فيها خير عوض عن الأم ، فحنت عليهم وغمرتهم بعطفها وحبها ورعايتها ، وفى كل صباح تقرأ لهم جريدة يومه ، وتشرح لآذانهم الصغيرة مشاكل السياسة والبرلمان . وفى كل مساء تقص عليهم قبل النوم قصصاً

مسلية يحوك خيوطها خيالها الخصيب ، وكان الكثير من هـذه القصص مخيفاً مرعباً ترتجف له قلوب الاطفال ، ولا يخفف من وقعه غير وجودها بينهم . وعندما يصفو الجو وتشرق الشمس تصحب ماريا إخوتهـا إلى البرارى الواسعة ، فتنطلق روحهم من عقالها ، فيجرون ويغنون ويمرحون ويحنون على كل زهرة ، ويداعبون كل طير ، ويتأملون كل جدول رقراق.

* * *

أحس مستر برونتى بوحشة شديدة بعد وفاة زوجته ، فاتخذ من ابنته ماريا مؤنسة له، يقرأ معها الجريدة الصباحية ، ويناقشها فى شئون السياسة والمجتمع ، ويقص عليها قصصاً فى المغامرات والمخاطرات والحروب ، وكلها أحاديث لا تناسب فتاة فى الثامنة من عمرها ، ولـكن الوافه لم يحاول أبداً أن ينخفض الى مستوى الأذن الصغيرة التى تصغى اليه ، وظلت هذه عادته طيلة حياته ، فاعتاد أولاده طرق أمثال هذه الموضوعات فى طفولتهم . ولم تملأ ماريا الفراغ الذى يحس به ، ففكر فى الزواج ثانية ، وأرسل يخطب الآنسة اليزابث فيرث صديقته أيام ثورنتون ، ولـكنها كانت قد عاهدت قسماً آخر على الزواج . وجعل يفكر فيمن يشركها حياته ، وعاوده الحنـين الى حبيبته الاولى مارى بيردر ، وكتب اليها يعتذر عما مضى ، ويؤكد أن أخلاقه قد تحسنت على مر السنين ، ولذلك يريد إصلاح خطئه القديم وما سببه لها من آلام بالزواج منها الآن . وأجابت الحبيبة القديمة تقول إنها تحمد الله الذى حماها من مصير أسود ، كان ينتظرها حتما ، لو أنها تزوجته

ومع ذلك فهى لا ترجو له غير الخير والسعادة ! وأرسل يستعطفها ثانية ، ولـكنها أصمت أذنيها دون رجائه ، ولم يحاول بعد ذلك الزواج ، وكتب إلى مس برانويل شقيقة زوجه الراحلة ، يشرح لها حاجة الأطفـال إلى الرعاية والعناية ، ويدعوها إلى هاوارث لتعيش معهم ، فقبلت الخالة الدعوة من فورها ، وحزمت أمتعتها وتركت دارها المحبوبة ، واتجهت إلى هاوارث تلبية لنداء الواجب .

# ٣

ساد الأبراشية جو من المرح لم يعهد من قبل ، وقد علم الأطفال قرب قدوم خالتهم للعناية بهم ، ففرحوا وطربوا ، وتخيلوا سعادة دانية ، وعطفاً سيشملهم جميعاً : فهى أخت والدتهم ، ولذلك تماثلها — بطبيعة الحال — رقة وتقديراً للأمور ، وستعوض بحنانها ما فقدوه ، ويغمرهم من حبها ماهم فى حاجة إليه ، و بفضل وجودها ورعايتها ستنقلب هاوارث الكئيبة الحزينة إلى نعيم مقيم ؛ وعند ما حضرت استقبلها الكل فى حرارة وترحيب .

وكانت الخالة عانساً فى الأربعين من عمرها ، صغيرة الجسم ضئيلة الحجم لها شخصية قوية ، وضمير حى ، وقلب حساس ، ولكنها ضيقة التفكير خشنة اللسان لاتستسيغ روح العصر الذى تعيش فيه ، ولا تؤمن إلا بتقاليد عرفتها وهى بنت عشرين . وما كادت تستقر فى الأبراشية حتى امتلأ قلبها بالكراهية لمدنية هاوارث ، ومن يعيشون فيها ، وكلما قايست بين هذا المكان ومسقط رأسها ازدادت كراهيتها وتضاعف مقتها ؛ فبنزانس تختلف تماما عن هاوارث : شمسها ساطعة ، وجوها رائق ، وأمطارها قليلة ، وشتاؤها مقبول وفى الربيع والصيف تنمو الأعشاب الخضراء وتزينها مختلف الزهور والورود ،

أما هاوارث فلا نهاية فيها للأمطار والرياح والجليد . وتفقدت بين الجدران الحجرية الرطبة المجتمع الأنيق الذى اعتادت أن تختلط به ، والأصدقاء المثقفين المهذبين الذين عرفتهم وأحبتهم منذ سنوات ؛ وطبيعى أن تجد بين ماضيها القديم الأنيق وحاضرها الموحش الكئيب فارقاً رهيباً ليس من السهل على من جاوز الأربعين أن يقبله أو يستسيغه . ولما كان البيت كله من الأحجار أصبحت فى رعب دائم من أن تصاب بالروماتزم ، ولذلك اعتكفت فى حجرتها ترقب أشعة الشمس إن جاءت . وهكذا حرم الأطفال صحبتها وإن فرضت عليهم هذه الصحبة بضع ساعات من أجل تعلم الحياكة والتطريز .

وكان الأطفال مصدراً آخر لمتاعب الخالة ، فهم خمس بنات وصبى عاشوا دائماً دون رعاية أو رقابة ، فاعتادوا الحرية فى تصرفاتهم ، وعدم المبالاة فى حياتهم ، ومعلوماتهم جميعاً مقصورة على موضوعات لا تقرها ولا تحبذها ، فهم يقضون الصباح كله تقريباً فى قراءة الجرائد ، ومناقشة شئون السياسة والبرلمان ، ويحفظون عن ظهر قلب أسماء رجال المجتمع البارزين ، وما يقومون به من مشروعات وأعمال ؛ أو يؤلفون قصصاً تمثيلية يخرج منها دوق ولنجتون — وهو معبود تشارلوت — أبداً ظافراً منتصراً ؛ فضلا عن أن ماريا دائمة الإهمال ، واليزابث دائمة التأمل ، ولتشارلوت نظرات نفاذة ولسان جارح ، وإميلى على صمتها قوية الشكيمة مرهفة الإحساس ، وأما آن فقد كانت أصغر جداً من أن تظهر عيوبها الخلقية .

وخرجت الخالة من دراستها بنتيجة واحدة ، وهى أن برانو يل ذا الشعر الأحمر الجميل ، والعيون الساحرة ، والذكاء النادر أفضل الجميع ، فأفرطت فى حبه والعطف عليه ، و بالغت فى تدليله و إكرامه ، و بادلها الصبى شعورها و إحساسها ، وظل محباً وفياً لها حتى النهاية .

وقررت الخالة أن تقوّم اعوجاج الفتيات ، وتوجههن التوجيه الصحيح ، والتوجيه الصحيح فى نظرها هو تعلم الحياكة و إتقان التطريز ، لا التحدث فى شئون السياسة والبرلمان ، ففرضت عليهن بضع ساعات كل يوم ، يجتمعن خلالها فى حجرتها يتعلمن على يديها أسرار الفنون النسوية . وكانت تعاقبهن فى هذه الحجرة ، وتؤدبهن بشتى الطرق ومختلف الوسائل ، و يقول النقاد : إن تشارلوت برونتى عند ما كتبت فيما بعد قصتها الخالدة « چين أير » رسمت خالتها فى شخصية مسز ريد التى كانت تجلد الفتاة اليتيمة فى حجرتها الرهيبة .

ولكن مستر برونتى على اعتكافه وجموده لم يكن يتفق معها فيما يختص باهتمام أطفاله بشئون السياسة والبرلمان ، بل يجد فى ذلك الاهتمام بوادر ذكاء ونبوغ ، فجعل يرقب أولاده خلال وقت اللعب ، فيجد أن التسلية الدائمة للصبى والفتيات هى تأليف الروايات السياسية والتاريخية . ولاحظ فى هذه الألعاب بشائر مواهب عظيمة لا تتناسب مع سنهم الصغيرة ، فقرر أن يختبر هذه المواهب ، وخشية أن يمنعهم الخجل من التحدث فى حضرته بصراحة جلب قناعا ، وأمرهم أن يضعوه على وجوههم بالتناوب ، ثم يجيبوا عن

الأسئلة التى يلقيها ، و بدأ بأصغرهم آن ، وكانت فى الرابعة من عمرها :

برونتى : آن ... ما أهم ما تحتاج إليه طفلة مثلك ؟

آن : السن والتجربة .

وجاء دور إميلى وكانت فى الخامسة من عمرها :

برونتى : إميلى . . . ما أنجع وسيلة استعملها مع شقيقك برانويل عند ما يعبث ؟

إميلى : ناقشه منطقياً ، و إن لم يصغ إلى المنطق فأجلده .

وتلاها برانويل وكان فى السادسة من عمره :

برونتى : برانويل ... ما أحسن وسيلة لتقدير الفرق بين مواهب المرأة ومواهب الرجل ؟

برانويل : تقدير الفرق بين جسديهما .

وأعقبته تشارلوت وكانت فى السابعة :

برونتى : تشارلوت ... ما أفضل كتاب فى العالم ؟

تشارلوت : الإنجيل .

برونتى : والكتاب الذى يليه ؟

تشارلوت : كتاب الطبيعة !

ثم سأل اليزابث وكانت فى الثامنة ؟

برونتى : اليزابث ... ما أحسن منهج لتعليم المرأة ؟

اليزابث : الذى يمكنها من إدارة بيتها إدارة طيبة .

وأخيراً جاء دور ماريا وهى فى الحادية عشرة :

برونتى : ماريا ... ما خير وسيلة لتمضية الوقت ؟

ماريا : قضاؤه فى الاستعداد لخلود سعيد .

وتركت تلك الإجابات السديدة فى ذهنه أثراً عميقاً ، وأقنعته أن لأطفاله الصغار مواهب يجب ألا تهمل ، فقرر مضاعفة العناية بتعليمهم ، وجعل يبحث عن مدرسة تناسب موارده الصغيرة ، فاهتدى إلى مدرسة « كوان بريدج » الداخلية ، التى افتتحت أخيراً لبنات القساوسة الفقراء ، فأدخل فيها ابنتيه ماريا واليزابث فى شهر يوليو عام ١٨٢٤ .

***

افتتحت مدرسة « كوان بريدج » — كما ذكرنا سابقاً — لتعليم بنات القساوسة الفقراء، ولذلك كانت أقرب إلى ملجأ منها إلى مدرسة؛ فمصروفاتها أربعة عشر جنيها فى العام يدفعها الأب أجراً للتعليم والمسكن ،وثمناً للطعام والملبس . وطبيعى أن لا يكفى هذا المبلغ جميع تلك النفقات ، ولكن القس وليم كورس ويلسن — صاحب المشروع — كان يعتمد على تبرعات الخيرين وذوى البر والإحسان . وطاف أنحاء البلاد ، فلم تند كف أحد بسخاء ، وكانت النتيجة أن اضطر إلى الاقتصاد الشديد ، ليتمكن من الاستمرار فى مشروعه .

ووجد مستر برونتى أن نفقات « كوان بريدج » الصغيرة تتفق مع موارده المحدودة ، فأرسل إليها ابنتيه ماريا واليزابث ، و بعد ذلك بشهرين

أدخل فيها الاثنتين الأخريين تشارلوت وإميلي . وبقي برانويل مع آن في الأبراشية يتلقيان العلم على يدى والدهما . وكان الصبي في الواقع أحق الجميع بدخول مدرسة ، فلقد حبته الطبيعة بمواهب خارقة : ذكاء حاد ، ولسان فصيح ، ومخيلة واسعة خصبة ، وحسن يسترعى الأنظار ، وإذا اقترن الذكاء بالحسن وجب توجيه صاحبهما في الحياة توجيهاً صالحاً ، وإلا انعكست الآية وأتت بغير النتيجة المرجوة ؛ ولكن مستر برونتي على حكمته واتزانه لم يتبين هذه الحقيقة ، واعماه فخره بابنه الوحيد عن الخطر الذى يتهدده ، وقرر أن يقوم هو نفسه بتعليمه وتثقيفه ، ليعد منه للمجتمع درة فريدة .

وكانت مدرسة كوان بريدج ، عبارة عن مجموعة أكواخ صغيرة قذرة لم تراع في بنائها الوسائل الصحية الضرورية لكل مكان يجمع نفراً كبيراً ؛ فضلا عن أن القس وليم كورس ويلسن كانت له ثقة عمياء ببعض موظفيه ، فاستغلوا هذه الثقة لصالحهم فقط ، وتحايل الطاهي على السرقة بكافة الوسائل ، فانحط مستوى الطعام إلى حد بعيد . وفي كل يوم تجلس التلميذات إلى المائدة جياعاً ، فيقدم لهن لحم أزرق رائحته النتنة تملأ أرجاء المدرسة ؛ وفي يوم السبت يتناولن فضلات الأسبوع السابق ، وهي فضلات دب الفساد فيها لعدم حفظها في مكان صحى . وقد يحدث أن تفاجئهن المدرسة يوماً بكعك مصنوع من الأرز ، ولكن الطاهي يعجن هذا الكعك بمياه الأمطار المتساقطة من الميازيب ، والمحملة بمختلف أنواع الأتربة والأقذار ! وطبيعى أن تعاف نفوس الفتيات هذه القاذورات ، فينصرفن عنها باشمئزاز ،

ويفضلن أن يبتن على الطوى فى كثير من الأحيان ، فانحطت الصحة العامة بين التلميذات ، وزادت ماريا برونتى نحولا ، وتضاعف ذبول شقيقتها اليزابث ؛ ورأت الناظرة الحالة الخطيرة ، فقلقت وتألمت ، ولكنها لم تجرؤ على الاعتراض فى حضرة القس ، لأنه كان يثق بالطاهى ثقة لا تقبل الشكوى أو الاعتراض .

وفى أيام الآحاد كان يتحتم على التلميذات الذهاب صباحاً للصلاة فى كنيسة ( تانز تول ) التى يرأسها القس ويلسن ؛ وتبعد الكنيسة عن المدرسة بما يزيد على ميلين ، والطريق بين الاثنتين طويل متعرج ، تتخلله منخفضات ومرتفعات ، ولا تقوم به أشجار عالية تحمى السائر من شر الأمطار والرياح . وتقطع الفتيات هذه الرحلة الشاقة مرة كل أسبوع ، وتوزع عليهن شطائر صغيرة ، لاستحالة العودة فى وقت الغذاء . واستطاعت تشارلوت وإميلى الاحتمال ، ولكن ماريا واليزابث ازدادتا ضعفاً ونحولا ، وأصابهما سعال حاد كان نذير مرض صدرى قاتل .

ومستر كورس ويلسن قس من نوع عجيب ، لا ينتمى إلى روح المسيحية الحقة من قريب أو بعيد ، فأخلاقه الخشنة ، وقلبه القاسى ، وتفكيره الضيق لا تناسب ثياب الكهنوت التى يرتديها . ونحا فى معاملته للفتيات منحى التهديد الدائم بالجحيم والنار واللعنة الربانية ، ورسم الله لهن فى صورة وحشية تقشعر لها الأبدان : فكذبة واحدة من طفل صغير تكفى لإثارة الرب ، وشدة غضبه ، فيبعث إلى الكاذب بصاعقة تقتله ، أو بميتة أخرى فجائية بشعة تمثل به ، وتجعله عبرة لمن يعتبر . ولا ينتهى العقاب بذلك ،

بل ترتفع روح الطفل إلى السماء ، لتتقلب بين مختلف أنواع النيران والجحيم !
وطبيعى أن يفشل مثل هذا القس فى رسالته ، ويثير فى نفوس الصغيرات كراهية له واشمئزازاً من ربه البشع الرهيب .

ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل تعداه إلى نواح أخرى ، فماريا — حبيبة أخوتها ومعبودتهم جميعاً — فتاة ذكية راجحة العقل ، تسمو بتفكيرها عن مستوى زميلاتها فى الدراسة ، ولكنها مهملة بطبعها فى بعض الأمور . وأثار إهمالها كراهية مدرسة قاسية لا تعرف الرحمة ، فأنزلت بها من أنواع الاضطهاد ما تنكره الإنسانية . وعلى الرغم من أن داء السل كان يفتك بها و باليزابث ، وضاعف فتكه العذاب والجوع ، فقد احتملت السعير الذى تعيش فيه بصبر وطول أناة . و يقال إن ماريا أصيبت بقرحة كبيرة فى جانبها ، واشتدت بها الآلام ذات صباح ، فلم تقو على النهوض من فراشها وجاءت المدرسة القاسية ، ورأتها مريضة متألمة ، ومع ذلك أمرتها بالنهوض حالاً من الفراش ، فلبت الأمر متخاذلة مرتجفة لفرط الحمى ؛ ولأنها تباطأت بعض الشىء فى ارتداء ملابسها ، هجمت عليها المدرسة ، وأمسكتها من مكان القرحة ، وألقت بها على الأرض ، ثم انصرفت غاضبة . وصرخت التلميذات جميعاً رعباً وفزعاً ، فأسكتتهن ماريا بألفاظها الرقيقة ، وأتمت ارتداء ملابسها ، وهبطت إلى قاعة الدرس ، ولأنها تأخرت بضع دقائق عن الابتداء نالت عقاباً جديداً على تأخرها .

وحدث بعد ذلك أن انتشر فى المدرسة وباء التيفوس الخبيث ، فراح ضحيته الكثيرات ، وأصيبت ماريا واليزابث ، فكان القضاء المبرم على

ما تبقى من جسديهما النحيلين . وعند ما زال عنهما خطر التيفوس ، كان الموت يقترب فى خطى حثيثه ؛ واستدعى الوالد على عجل ، فحمل بناته الأربع من المدرسة الرهيبة ، وعاد بهن إلى الأبراشية ؛ وماتت ماريا بعد أيام قليلة ، وبموتها حرم أولاد برونتى العطف الوحيد الذى تذوقوه خلال حياتهم المظلمة ؛ ولحقت بها اليزابث بعد أسابيع !

وعلى الرغم من أن تشارلوت لم تقاس شيئا من المذلة لذكائها واجتهادها ، وعلى الرغم من أن إميلى جذبت قلوب أهل ( كوان بريدج ) بجمالها ورقتها، إلا أن الفظائع التى مرت بأختيهما الراحلتين ظلت ماثلة فى ذهنيهما مدى الحياة . وعند ما كبرت تشارلوت ، وألفت ( جين أير ) كرست جزءاً كبيراً من الكتاب لهذه المدرسة ، ووصفت الآلام والأحزان فيه بتطويل وانتقمت من المدرسة انتقاماً يلائم وحشيتها وقسوتها .

ونحن نعرف أن أخطر الذكريات ما ينطبع فى الذهن خلال الطفولة ، ويبقى حبيساً لا يجد مجالا للظهور ؛ وهو فى هذه الحال يتضخم ويزيد ويتجسم ، وذلك ما حدث فعلا مع تشارلوت ؛ فقد ظلت طيلة طفولتها وشبابها تطوى ذكرياتها بين جنبيها ، حتى أتتها الفرصة ، فأخرجتها فى ( جين أير ) ، ورسمت بدقة ( كوان بريدج ) باسم ( ملجأ لوود ) ، وصورت أختها المحبوبة ماريا فى صورة هيلين بيرنز ، وجعلت المدرسة القاسية المتوحشة مس سكاتشارد . وكانت دقيقة فى تمسكها بأهداب الحقيقة ، حتى مكنت جماهير القراء من معرفة الأماكن والشخصيات التى وضعت تحت أسماء مستعارة .

## ٤

ساد الأبراشية — بعد وفاة ماريا وأليزابث — جو من الهدوء والوجوم وخات الحياة فيها من دواعى السرور والسعادة للأطفال ، فالأخت الكبرى التى قامت أبداً مقام الأم العطوف الحنون قد ذهبت ، والحوادث المحزنة الأخيرة قد خلفت أثراً أعمق من أن يمحوه الزمن ، وتضاءل عددهم إلى أربعة بعد ستة، وهى نسبة ملحوظة أحس الكل بوطأتها فى بادىء الأمر.
وانقضت الأيام على وتيرة واحدة لا تغيير فيها ولا تبديل : ففى الصباح يستيقظن مبكرات ، ويقمن بنصيبهن من العمل المنزلى ، ثم يخرجن مع أخيهن الوحيد برانويل للسير طويلاً فى البرارى الواسعة الممتدة . وبعد الغداء ينصرف الصبى إلى درسه اليومى مع والده ، وتجلس الفتيات الثلاث حول الخالة يقرأن أو يتعلمن فن الحياكة والتطريز . وفى المساء تدب الحياة فى هؤلاء الصغار ، فيجتمع الأربعة حول نيران الموقد يقرأون الجرائد ، ويتناقشون فى السياسة وأخبار اليوم ، ويؤلفون قصصاً بارعة عن أبطال المجتمع البارزين ، ويحاول كل منهم أن يخرج بطله منتصراً .
وكانت تشارلوت — أكبر الأربعة — فى التاسعة من عمرها إذ ذاك

وإن ارتفعت بحكمتها وذكائها عن مستوى سنها بكثير ، غير أن الطبيعة حرمتها نعمة الحسن ، وهى أعظم نعمة تتوق اليها المرأة فى الحياة : فجسمها نحيل الى درجة الهزال ، وقامتها قصيرة كقزم صغير ، وأنفها كبير بارز ، وفمها متسع ، وشفتاها الدقيقتان تنفرجان عن أسنان معوجة مشوهة ، وعيناها عميقتان واسعتان ، ومع ذلك فنظرها قصير ضعيف يدفعها إلى دفن وجهها فى الأوراق عند الكتابة أو القراءة .

وأحست تشارلوت بهذا القبح ، وأسمعها الناس رأيهم فيه منذ الصغر ، فتملكها شعور بالنقص ، وأصابتها عقدة نفسية ظلت طوال حياتها محور شذوذها وخشونتها ، فابتعدت عن الناس ، وكرهت الغرباء ، وبدأتهم بالعداء ، اعتقاداً منها أنهم ينفرون من النظر إليها ، ويشمئزون من قبحها . وطبيعى أن تتوق إلى السمو فى ناحية ، لتعوض نقصها فى الناحية الأخرى ولكن حياتها الضيقة ، ومحيطها المحدود لم يفسحا لها مجالا واسعا ، فقنعت بالسيطرة على أخوتها ، وبسطت سلطانها على ثلاثتهم ، وظلت مدى حياتها تتحكم فيهم ، وتوجههم وفق آرائها وهواها ، دون تقدير لرغباتهم الخاصة وميولهم الطبيعية .

وتبينت على مر الأيام أن النبوغ والشهرة هما سبيلها الوحيد للانتصار على القبح ، فعبدت هذه الشهرة وذلك النبوغ فى غيرها من الناس ، وقدمت آيات الولاء والخضوع لعظماء المجتمع ، واختارت من بينهم دوق ولنجتون – رجل البلاد الأول إذ ذاك – ليكون بطلها ومعبودها ، وألفت عنه قصصاً كثيرة ، وروايات تمثيلية عدة .

وتلفتت تشارلوت حولها ، وتفحصت أخوتها جميعا ، فما وجدت من يستحق التقدير غير برانويل . وكان الصبي يصغرها بعام واحد ، ولكنه يفوقها فى كل شىء : فحسنه الفريد يلفت الأنظار ، وبنيانه القوى يبشر بصحة طيبة ، ولسانه السلس وحديثه الممتع وذكاؤه المفرط تسحر قلوب أصدقاء الوافه ، والمترددين على داراالأبراشية . وأسلوبه الرائع فى الكتابة ، وميله إلى الأدب والشعر ، وموهبته النادرة فى الرسم كل أولئك يدل على عظم نبوغه ، واقترابه من الشهرة فى خطى حثيثة . وعند ماتبينت تشارلوت هذه الأمور ضمت برانويل إلى صدرها ، وأحاطته بحنوها وغمرته برعايتها وحبها ، واصطفته صديقاً حميما من بين الآخرين . وبادلها الحب والعطف ورحب بصداقتها ، لأن الصبية فى هذه السن يميلون إلى مصاحبة من يكبرهم عمراً .

وكانت إميلي — وهى ثالثة الأربعة — على عكس تشارلوت : شعرها كستنائى غزير يتهدل فى خصلات متموجة فوق كتفيها ، وقامتها طويلة فارعة، وتقاطيعها حسنة متناسقة ، وعيناها النجلاوان تشعان سحراً وغموضاً عجيباً لا يتناسب مع فتاة ما زالت فى السادسة من عمرها ؛ ولكنها هادئة صامتة خجول ، وإن كانت هذه الصفات قشرة ظاهرية فقط ، تخفى تحتها قلباً جباراً ، وروحاً مرهفة شديدة الحساسية ، وإرادة من حديد .

ووقفت إميلي ترقب التطورات الجديدة بين تشارلوت وبرانويل فى دهشة ووجوم ، فهى أيضاً تحب أخاها كثيراً ، وتتمنى قربه ومصاحبته ..

تحبه لشخصه فقط ، لا لأنه سيكون عظيما فى يوم من الأيام ، ومع ذلك فقد استأثرت تشارلوت به ، واستحوذت على ثقته وصداقته ، فشغل بهذه الثقة والصداقة عن أخته الأخرى المحبة . وأحست إميلى بفراغ شديد فى حياتها ، وثار قلبها الجبار رغبة فى الحب ، وتألمت نفسها المرهفة الحساسة لحرمانها من العاطفة التى تنير حياة كل طفل صغير ، فنذرعت بإرادتها الحديدية ، ووقفت ترقب مجرى الأمور صامتة جامدة ، وعندما وثقت من الفشل قنعت بصداقة أختها الصغيرة آن ، وظلت الاثنتان جنباً إلى جنب حتى فرقت بينهما الحوادث الرهيبة التى نزلت ببرانو يل التعس .

وانقضت الأيام ، وتلتها الشهور فالأعوام ، والأخوة الأربعة يلازمون دار الأبراشية ، ويعيشون فى وحدة وعزلة لا يقتحمها غرباء ، ولا تبددها صداقة أحد . وظل الوالد معتكفاً بين مكتبه وكنيسته ، وبقيت الخالة حبيسة حجرتها تلتمس الدفء والانتعاش فى أشعة الشمس إن دخلت ؛ وتزايد نصيب الفتيات فى العمل المنزلى ، فقمن بالكنس والغسل والكى وحياكة ملابس الجميع . وأرهقهن العمل ، وحرمهن نزهة السير فى البرارى الواسعة المحبوبة ، فاشفقت الخالة عليهن ، وجلبت إلى البيت خادمة جديدة هى تابى العجوز .

وجاءت تابى إلى الأبراشية وقد جاوزت الستين ، فاستطاعت بعد أيام قليلة أن تملك ناصية الأطفال ، وتستحوذ على محبتهم وثقتهم ، فقد كانت المثل الأعلى للمرأة اليوركشيرية الطيبة : خشنة اللفظ لا تميل إلى ملق أو

مجاملة ، ولكنها طيبة القلب ، وفية لمن تخدمه ، فأخلصت الحب للفتيات ، وتفانت فى توفير أسباب الراحة والسعادة لهن فى حدود موارد الأسرة وطاقتها المالية ، ولم تتطلب شيئاً مقابل هذا غير صداقتهن . و بادلنها الحب والأخلاص ، وأصبحت حجرتها مكانهن المفضل يجلسن فيها ساعات طوالا يصغين إلى أغانيها الريفية الساذجة ، أو يسمعن منها قصصاً خرافية عن الجن.

والحياة الريفية البعيدة عن المجتمع إذا خلت من الحوادث المثيرة تدفع صاحبها إلى التأمل والتفكير ، وأبسط الأمور فيها يرتسم فى الذهن ، و يترك خلفه ذكريات دائمة تزيد تجسما وعمقاً على مر الأيام . والذين يعيشون فى وحدة دائمة لا يجدون عادة ما يسليهم ، فيبحثون فى أدمغتهم عن وسائل التسلية ، و يرسمون لأنفسهم صوراً وحوادث تخلق فيهم ملكة الخيال الواسع الخصيب . وهكذا كان الحال مع أولاد برونتى الأربعة ، وفى كل مساء يجتمع شملهم حول الموقد يتحدثون فى مختلف الأمور التى قرؤوها فى الصحف ، أو سمعوها من تابى العجوز عن إضراب عمال الطواحين الهوائية، وما يسببه من جوع و بؤس . و يقتلون هذه الموضوعات بحثاً ونقاشاً حتى تنطبع فى أذهانهم ، وتوحى إليهم بقصص صغيرة مسلية ، فينكب كل على ورقة يسجل أفكاره وخيالاته وآراءه ، و يصوغها فى شكل رواية تصلح للتمثيل .

وبدأت أعمالهم الأدبية بهذه الصورة ، ثم أخذت شكلا جدياً آخر : ففى ذات مساء اجتمع الأربعة حول نيران الموقد كالعادة ، بعد أن انصرف

الوالد إلى مكتبه ، واعتكفت الخالة ، وأوت تابى إلى فراشها . وكان الليل لم يطبق بعد ، والأطفال لا يرغبون فى النوم ، وساد الصمت بينهم ، فتثاءب برانويل ، واقترح على أخواته لعبة تبعد الملل والسأم ، فماذا يلعبون ؟ جعلوا يفكرون بحماس ، ويستعرضون الألعاب التى يعرفونها ، ثم اتفق رأيهم جميعاً على شىء جديد ، وهو أن يختار كل منهم جزيرة لنفسه ، وينصب عليها حكاماً ثلاثة يديرون فيها شئون السياسة والمجتمع . وانقسم الأربعة فريقين : أحدهما تشارلوت وبرانويل ، والآخر إميلى وآن ، واختار الفريق الأول جزيرة خيالية اسمها أنجريا ، تقع غرب أفريقيا بالقرب من دلتا نهر النيجر ، ويسكنها شعب الأنجريين ، ويحكمها ملك اسمه (زامورنا). أما الفريق الآخر فقد اختار جزيرة (أنجورا) بالمناطق المتجمدة المليئة بالجبال والتلال ، ويعيش فيها (الجوندال) تحت حكم ملك اسمه (چوليوس) .

وخرجت اللعبة بعد قليل من حيز الكلام إلى التأليف ، وسجل الفريقان الحوادث والأخبار شعراً ونثراً ، وفى كل يوم يجد من الحوادث السياسية ما يغير مجرى الأمور ، فتتعقد الأحوال ، ثم يخرج الملوك والحكام فائزين منتصرين . وظلت لعبة (الجزائريين) موضوعهم المحبب ، وثابر عليها برانويل مع تشارلوت إلى سن العشرين ، ثم انصرفا عنها إلى الأبد ؛ ولكن إميلى وآن تمسكتا بهذه اللعبة إلى آخر حياتهما ، وعندما كانت إميلى بعد ذلك تؤلف (مرتفعات وذرنج) كانت فى الوقت نفسه تنظم سرًّا قصائدها الجوندالية المشهورة .

لم يكن فى كتابة تشارلوت فى ذلك العهد روعة تلفت النظر ، و إن حوت دقة فى التعبير ، ورصانة فى الكلمات ، واقتصاداً فى استعمالها ، وقدرة على التصوير ، وهى صفات تدل على أن صاحبتها تملك ناصية الأسلوب فى شكل يساعدها بسهولة على التعبير الواضح عما يجول فى خاطرها : كتبت وهى فى الثالثة عشرة من عمرها تقول :

« فى مساء يوم من أيام شهر نوفمبر كانت الرياح تموج مختلطة بالأمطار ، وخيم الضباب الذى يسبق العواصف الثلجية ، وهب هواء الشتاء يلفح الوجوه ببرودته ، فجلسنا جميعاً نتأمل لهيب النيران اللامع بعد أن انتهينا من مشاجرة تابى على شمعة نوقدها ، وخرجت تابى من المعركة منتصرة كالعادة ، ولم نحصل على الشمعة ! »

وكتبت بعد ذلك بعام تقول :

« وقع حادث عجيب فى اليوم الثانى والعشرين من شهر يونيو عام ١٨٣٠ ، وكان والدى إذ ذاك مريضاً يلازم الفراش ، و بلغ به الضعف مبلغاً شديداً أعجزه عن التحرك دون مساعدة . وجلست أنا وتابى وحدنا فى المطبخ ، وفى منتصف الساعة السابعة سمعنا الباب يقرع فجأة ، فقامت تابى وفتحته ، فقال لها رجل عجوز يقف فى الخارج :

الرجل العجوز : أيسكن القس هنا ؟

تابى : نعم .

الرجل العجوز : أريد أن أراه .

تابى	إنه فى شدة المرض ويلازم فراشه .

الرجل العجوز	ولكنى أحمل رسالة اليه .

تابى	ممن ؟

الرجل العجوز	من الرب .

تابى	من ؟!

الرجل العجوز	الرب . وقد طلب منى أن أقول له : إن المسيح قادم ، وعلينا أن نستعد لاستقباله ، فالحبال على وشك الأرتخاء ، والصحن الذهبى قد انكسر ، وتحطم الإبريق عند النافورة .

وهنا اختتم حديثه العجيب ، وذهب فجأة كما حضر ، وبينما تابى تغلق الباب سألتها : أو تعرفين الرجل ؟ فأجابت أنها لم تر وجهه أبداً ، ولم تقابل فى حياتها من يشبهه . وعلى الرغم من أننى واثقة أنه رجل طيب المقصد وإن كان متعصباً لا يعرف التقوى على حقيقتها ، فإنى لم أقو على كبت دموعى من أجل كلماته التى نطق بها فجأة فى مثل هذا الوقت العصيب . »

وهذه النبذ المنقولة من أوراقها فى سن الطفولة لا تكشف عن أسلوب فريد ، ولكنها تفصح عن قدرة تامة على تسجيل ما يجول بذهنها بجمل مختصرة متزنة واضحة . أما كتابة إميلى فى ذلك العهد فلا نعرف شيئاً عنها ، لأنها أخفت أوراقها عن إخوتها ، وعندما ماتت فى سن الشباب تصفحت تشارلوت هذه الأوراق ، وأحرقت الكثير منها ، ولم تبق إلا

على بضع قصائد فقط ، فحرمت المؤرخين المرجع الأعظم لتعرف أخلاقها وعقليتها وأفكارها فى ذلك العهد .

هكذا مضت السنوات الخمس التى أعقبت وفاة ماريا و إليزابث بعد العودة من « كوان بريدج » ، وهى فترة طويلة خالية من الصحبة أو الرعايه الحقة : فالوالد بين كتبه وكنيسته لا يرى بناته كل يوم إلا بضع دقائق فقط لا تكفى لتوجيههن ، أو التغلغل فى حياتهن ؛ والخالة قابعة فى حجرتها خشية البرد ، وتابى كدأبها تؤنبهن ، أو تسرد عليهن قصص الجن والسحر . وأبقت العزلة الطويلة أثرها على الفتيات طول العمر ، وخلفت لهن خجلا شديداً شاذا أبعدهن دائماً عن الناس .

ولكن تشارلوت الطموح لم ترض بهذا الحال ، فالبقاء بين جدران الأبراشية معناه الجهل وخمول الذكر ، وذلك ينافى آمالها الكبيرة ، والعلم القليل الذى تلقنه لها الخالة لا يشبع ما فى نفسها من تعطش إلى الثقافة والمعرفة ، فقررت أن ترفع من شأنها العلمى ، وألحت على والدها ليبعث بها الى المدرسة ، واقتنع الوالد برأيها ، فسافرت فى يناير عام ١٨٣١ لتلتحق بمعهد مس وولر للبنات .

## ٥

تقوم مدرسة مس وولر فى منطقة « روهيد » على بعد عشرين ميلا من هاوارث ، ومع قصر المسافة بين البلدين اختلفت المناظر والأحوال الجوية كل الاختلاف . فالشمس ساطعة فى روهيد ، والأمطار قليلة ، والشتاء خفيف الوطأة ، والحقول والحدائق ناضرة الخضرة مليئة بالزروع والزهور .

والمدرسة بناء جميل يقوم فى ركن حقل واسع كبير ، والحجرات صحية ، والنوافذ الكثيرة تطل على مناظر طبيعية تخلب الألباب واشتهرت مس وولر بين الجيرة بدماثة الخلق ، والأدب الجم ، وكرم الأصل ، فأقبل الناس على مدرستها ، وأحبوها واحترموها ؛ وأحست التلميذات بالراحة والسعادة فى صحبتها ، وشعرن كأنهن يعشن فى بيوتهن تماماً .

وفى اليوم التاسع عشر من شهر يناير عام ١٨٣١ وقفت عربة صغيرة أمام المدرسة تقل تشارلوت برونتى ، فتجمع البنات ليرين الطالبة الجديدة ؛ ونزلت من العربة فتاة ضئيلة الجسم كأنها عجوز درديس ، ترتدى ثوبا قبيحاً عتيق الطراز ، وكان جسدها يرتجف برداً ، ووجهها ينطق بالتعس والشقاء.

ولم تحدث تشارلوت فى بادئ الأمر أثراً طيباً فى نفوس زميلاتها : فهى

تتحدث بلهجة أرلندية قوية تختلف كل الاختلاف عن لهجة أهل يوركشير، وهى خجول حيية تنفر من الاختلاط، ونظرها الضعيف يمنعها من مشاركة الزميلات فى اللعب والمرح. وفى حجرة الدراسة تجلس وقد دفنت وجهها فى الكتاب، فإذا طُلب منها أن ترفع رأسها ارتفع الكتاب أيضاً كأنه يلتصق بأنفها!

وأحست تشارلوت بالوحدة الشديدة فى حياتها الجديدة، فابتعدت فى اليوم الثانى عن الفتيات الضاحكات، ووقفت جوار النافذة تتأمل الثلوج المتساقطة، وتبكى فى حرارة وحزن. وتأثرت إحدى الفتيات واسمها إلين ناسى، فاقتربت منها، وتحدثت إليها فى عطف، وكان ذلك بدء صداقة حارة بين الاثنتين ظلت قوية ثابتة على مر الأعوام.

وكانت تشارلوت — بطبيعة الطريقة التى عاشت عليها وتعلمت بها فى هاوارث — أجهل من زميلاتها فى بعض العلوم، وأنبغ منهن فى علوم أخرى: فعلى الرغم من مؤلفاتها الكثيرة عن الانجريين، والمناطق الاستوائية كانت لاتعرف شيئاً عن الجغرافية وقواعد اللغة، ولذلك نقلتها الناظرة إلى السنة الثانية مع فتيات يصغرنها سناً بكثير. وتألمت الفتاة الطموح، وجرحت كبرياؤها، وبكت بكاء مراً أثار عطف مس وولر، فأعادتها إلى فصلها الأول بعد أن وعدت بمضاعفة العمل للوصول إلى المستوى المطلوب. ووفت بوعدها فعلا، واشتغلت ليلا ونهاراً، فتفوقت على الجميع بعد شهور معدودات!

ولكن الفتاة الجاهلة أدهشت الجميع بسعة معلوماتها العامة، فهى تحفظ

قصائد أعظم الشعراء عن ظهر قلب ، وتعرف فى السياسة وشئون البرلمان مالا يعرفه الرجال ؛ و يتناول حديثها السياسى عادة دوق ولنجتون ، فتسرد على زميلاتها تفاصيل مجهوداته وانتصاراته بدقة عجيبة . فضلا عن أنها قصصية من الدرجة الأولى ، وفى كل ليلة تتوسط الفتيات ، وتقص عليهن فى مهارة تصو يرية عجيبة قصة مخيفة من تأليفها تبعث الرعب فى أوصالهن ، حتى أن إحدى البنات أصيبت ذات مرة بنو بة عصبية حادة .

وأحدثت الثقافة المنتظمة ، والحياة الدراسية الجديدة أثراً ملحوظاً فى تشارلوت ، فنضجت أفكارها ، وراجعت نفسها فى أحلامها القديمة ، ووجدت أن هذه الأحلام غير معقولة أو عملية . فمجال الشهرة والعظمة ضيق أمام فتاة قضت حياتها فى الريف ، ولم تتلق من العلم ما يمكنها من الوصول إلى ماتبتغيه ؛ ثم أن والدها فقير لايملك ثروة ما ، فمن واجبها إذاً أن تعد نفسها من اليوم لاكتساب رزقها بعرق جبينها . وأمام الحقيقة المرة تنازلت عن أحلامها القديمة ، وقنعت بأمل صغير ، وهو أن تمكنها الظروف من الحصول على وظيفة مر بية فى أسرة ، أو مدرسة فى معهد صغير .

ولكن الثقافة المنتظمة ، والحياة الدراسية لم تغير شيئاً من جبروتها القديم وحبها للسيطرة على أختيها ، ورغبتها فى توجيههما وفق رأيها وهواها دون تقدير لرغباتهما الشخصية ، أو استعدادهما الطبيعى . وعندما قررت احتراف التدريس ، قررت أيضاً أن تحترفه إملى وآن ، وأعدت العدة لذلك فى بطء وحزم وسكون ، وأرسلت إلى الأبراشية أخبار قرارها الجديد ، وأمرت

الفتاتين بالدرس والتحصيل استعداداً للمهنة المنتظرة . و بعد سنة ونصف تخرجت تشارلوت من مدرسة مس وولر ، وعادت إلى الأبراشية عام ١٨٣٢ وقد بلغت السادسة عشرة من عمرها .

* * *

كانت الفترة الدراسية فى روهيد ذات أثر حيوى عميق فى حياة تشارلوت، فقد عقدت خلالها صداقة مع مارى تايلور و إلين ناسى ، وهو حدث جديد فى تاريخ الأبراشية التى يعيش أهلها بعيداً عن الناس وعن الصداقات . وعلى الرغم من تعلقها بمارى أخذ شعورها نحو إلين شكلا عاطفيـاً حاراً ، وأنقلبت صلتها بها إلى صداقة حارة من النوع الذى يحدث عادة فى سن المراهقة ، ثم لا يترك بعد ذلك خلفه أثراً ما . ولـكن علاقة الفتاتين انتصرت على القاعدة العامــة ، وظلت قوية ثابتة حتى النهاية ، و بفضل خطاباتها استطاع المؤرخون أن يصلوا إلى كثير من أسرار حياتها الأدبية الـكبيرة ؛ كتبت تشارلوت وهى فى السادسة عشرة إلى إلين ناسى تقول :

« . . . . لقد قدر على صداقتنا أن تستثنى من القاعدة العامــة للصداقات المدرسية . . . . »

وكانت تشارلوت فى بادىء الأمر هى الحاكمة المسيطرة على إلين ، فهى التى تشجعها وتحمسها وتعلمها ، وتناقشها فى الشئون العامــة ، وتخلق فيها الثقة بالنفس ، تقول فى خطاب إليها :

« . . . . إن مواهبك الطبيعية فائقة ، وتحت قيادة صديقة وفية يمكنك

أن تكتسبي ذوقاً سليما فى الأدب الرقيق والشعر الجميل . . . . »

ومرضت إلين واشتد بها الحال ، وخشى الطبيب أن يكون صدرها قد أصيب ، فقلقت تشارلوت من أجلها ، وكتبت اليها تقول :

« . . . . إن طبيبك الناصح مخطىء فى اعتقاده أنك معرضة لداء صدرى . . عزيزتى إلين لو حدث هذا لكان مصابا فادحا ، فاحذرى الأثر الحزين الذى يولده عادة مثل هذا الاعتقاد . . . . »

وعلى مر الأيام زادت حرارة الصداقة ، فأصبحت الناصحة المسيطرة تخشى أن تفقد صديقتها المحبة ، وعندما علمت بسفرها إلى لندن خافت أن تشغل بابليون الحديثة ، إلين عنها ، ولكن مخاوفها لم تتحقق ، فهدأت نفسها ، وزال قلقها ، وبدأت صداقتها تأخذ شكلا حكيما رصيناً .

* * *

عندما عادت تشارلوت من مدرسة مس وولر بسطت سلطانها على أختيها ، وأخذت على عاتقها أن تعدهما للمهنة التى قررت أن يحترفها ثلاثتهن فى الحياة ، وقامت بتعليمهما وتثقيفهما ، ونسيت أن تستطلع رأيهما فى المهنة الجديدة . وتقبلت آن الأمر فى هدوء ورقة كعادتها ، ولكن إميلى ثارت فى صمت على التدخل فى شئونها وحياتها ، فهى تحب البرارى الواسعه ولا ترغب فى ثقافة أو تدريس ، وتريد أن تترك حرة طلقة ، لتعيش وتموت بين أحضان أمها الطبيعة . وأقبلت على الدرس دون اعتراض ، وقد

بدأت بذور النفور تنمو فى قلبها نحو أختهـا التى حرمتها أولا صداقة برانويل ، وتريد الآن أن تحرمها الطبيعة التى أحبتها ..

ولم يكن لتشارلوت ميل الى الأعمال المنزلية ، فابتعدت عنها ، وفضلت أن تقضى وقتهـا فى التدريس لاختيها ، أو فى التأليف وقرض الشعر مع برانويل ؛ وطبيعي أن تعجز تابي العجوز عن تأدية مطالب البيت ، فسقط الحمل على كتفى إميلى ، فقامت بكنس الحجرات ، وغسل الثياب ، وعجن الخبز ، وتلبية حاجيات مختلف أفراد الأسرة . ومثل هذه الحيـاة قاتلة — ولا شك — لفتاة موهوبة حساسة يتعطش قلبها الجبار إلى العطف والحب ، وتلفتت حولها بحثاً عن هذا الحب فلم تجـده ، فالخالة قد وقفت قلبها على الصبي دون البنات ، والوالد معتكف فى حجرته لا يهمه من الحياة شيئاً غير كتبه وكنيسته ، وتشارلوت تستحوذ على برانويل العزيز ، أما آن فهى فارغة ومميزاتها الوحيـده طيبتها وتقواها ، وهى صفات محببة ، ولـكنها لا تملأ فراغ روح إميلى أو تشبع مطالب قلبها العظيم .

وكانت إميلى فى طفولتها تحس بفراغ نفسى ازداد على مر الزمن ، فأصبح اليوم وحشة خطيرة تهدد آراءها ومعتقداتها و إيمانها ، ولو أنها كانت بطبعها تميل الى الحديث ، لأفرغت بعض ما يطويه قلبها ، فتخف حدة آلامها كثيراً ؛ ولكنها كانت صموتاً تعيش فى تحفظ دائم يحيطهـا بدرع قوى من العزلة ، ولم يستطع أحد أن يحطم هذا الدرع ، ليصل إلى قرارة نفسها . واستعاضت عن الحب البشرى بحب الطبيعة ، وأغرمت

بالبرارى التى تشبهها فى الوحدة والغموض ، و بين أحضان هـذه البرارى يزايلها جمودها ، فتبسم وتمرح كطفل غرير ؛ أو تجلس على صخرة ، وتستسلم لتأمل طويل لذيذ .

وقد يتبادر إلى الذهن أن إميلى بهدوئها وصمتها كانت تعيش بين جدران الإبراشية دون تقدير أو اعتبار . . . . كلا بل على العكس من ذلك كان الكل يرهبها ، ويخشى جانبها ، فجمودها كان سر قوتها ، وغموضها مبعث الرهبة فى قلوب الآخرين ؛ وقلما كانت تغضب ، و إذا غضبت ابيض وجهها ، وتقلص فمها ، وتطاير الشرر من عينيها ، فلا يجرؤ أحد على التدخل أو النطق .

وكما يحدث عادة لمن يعيشون فى وحدة أحبت إميلى الحيوانات ، و بالغت فى حنوها وعطفها عليها ، واحتفظت فى حجرتها بنسر وضعته فى قفص ، وجلبت كلباً كبيرا متوحشا لم يستطع أحد غيرها أن يروضه أو يقترب منه ، وأخلصت فى وفائها للنسر والكلب ، وأشركتهما فى طعامها دائما ، ولم تأو يوماً إلى فراشها قبل أن توفر لهما أسباب الراحة والدفء .

وأظهر برانويل فى ذلك العهد ميلا إلى الرسم ، واستعداداً عظيما له ، فتقرر أن يدرس هذا الفن فى الأكادومى الملكية بلندن ، وتمهيداً لذلك خصصت له حجرة فى الإبراشية يرسم فيها صوره ولوحاته . ولم ينسه الفن حبه للادب ، فثابر عليه فى نشاط ، وفى كل مساء يجلس مع تشارلوت ينظم قصائد جميلة ، ويؤلف قصصاً رائعة ، مما يبشر بمكانة رفيعة فى

التأليف أيضاً ، ونضج أسلوبه وارتقى ، وأحس هو بذلك فداخله الغرور ، وعندما سمع أن المحرر الأول فى جريدة ( بلاكوودز ) قد ترك العمل ، أرسل إلى صاحب الجريدة يعرض عليه خدماته ، ويقول :

« لقد حرمت كاتباً قديراً هو چيمس هوج ، ولكن ها هو ذا الله يمنحك آخر فى شخص برانويل برونتى . . . »

وأتقن أيضاً فن الحديث ، وبرع فيه ، حتى اشتهر أمره فى الجيرة ، وأقبل الناس من مختلف البلاد القريبة على حانة الثور الأسود ، ليستمتعوا بحديثه الشهى ؛ وكلما وصل نزيل جديد أرسل صاحب الحانة يستدعى برانويل ؛ فيسمح له والده بالذهاب فخورا مزهوا ، وقد نسى أنه بذلك يدفع ابنه الوحيد إلى الهاوية !

***

انقضت سنوات ثلاث وأولاد برونتى الأربعة بين جدران الأبراشية ، وتقرر أن يذهب برانويل إلى لندن ، ليلتحق بالاكادومى الملكية ، فأثار هذا القرار تفكير تشارلوت : كانت تعرف أن إيراد والدها لا يزيد على مائتى جنيه فى العام ، وهو مبلغ صغير لا يتسع للانفاق على برانويل والإنفاق عليهن ، ولذلك حزمت رأيها على العمل ، لتخفف العبء عن والدها ، وجعلت تبحث عن وظيفة ، وجاءها عرضان لتكون مربية فى أسرة ، ولكنها رفضت العرضين بطبيعة الحال ، وفضلت أن تعود إلى روهيد مدرسة بعد أن كانت طالبة ، وأرسلت إلى إلين ناسى تقول :

« ستذهب إميلى الى المدرسة ، وسيسافر برانويل إلى لندن ، أما أنا فسأعمل مدرسة ، هذه هى قراراتى الأخيرة . . . . »

وهكذا قررت لنفسها ، وبجبروتها المعهود قررت مصير إميلى أيضاً ، دون أن تستطلع رأى صاحبة الشأن فى هذا القرار ؛ وحزمت أمتعتها ، وامتعة أختها ، وسافرت الاثنتان إلى مدرسة مس وولر فى اليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو عام ١٨٣٥ .

# ٦

طابت الحياة لتشارلوت برونتي مع مس وولر ، فحمدت الله أن « أوقع حظها بين أيد طيبة » كما تقول . وأقبلت على عملها الجديد بشغف واجتهاد مما أوثق عرى الصداقة بينها و بين ناظرتها القديمة . ولكن إميلي فشلت في احتمال الحياة الجديدة ، واشتد بها الحنين إلى حريتها السابقة ، وفي كل صباح يعاودها شبح البراري التي تحبها ، والتي تجد في سكونها وغموضها متعة لقلبها المحروم ، « فيظلم اليوم الذي ينتظرها و يبتئس » . وذبل وجهها على مر الأيام ، وفارقتها بسمتها النادرة ، وازداد جسدها نحولا ، وانحطت قواها الصحية إلى درجة مقلقة .

وحاولت تشارلوت أن تخفف عن أختها ، وتعيدها إلى حالتها النفسية السابقة ، فلم تفلح ، لأن الأختين اختلفتا تماماً في العقلية والأخلاق بحيث استحال على « إحداهما أن ترى الحياة بعين الأخرى » . ولم تمض شهور ثلاثة حتى كانت إميلي طريحة الفراش ، تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ؛ وتبينت تشارلوت خطأها ، فأعادتها إلى البيت مرة أخرى ، وكتبت بعد ذلك تشرح الأسباب :

« شقيقتى إميلى تحب البرارى ، وفى أسوء أركانها تبدو لعينيها زهور أزهى وأروع من الورود ، و باستطاعة ذهنها أن يخلق جنة من أى جحر حزين فى تل أجدب لا لون له . وفى هدوء البرارى تجد متعا عدة أهمها الحرية ، فالحرية هى النسيم الذى تستنشقه إميلى ، و بدونه تفنى وتذبل ؛ وكان انتقالها من البيت إلى المدرسة ، وتغيير نظامها من عزلة لا تصنع فيها ولا قيد ، إلى حياة كلها نظم وقيود أكثر مما تحتمله . . . وعندما تستيقظ كل صباح يطبق عليها شبح البيت والبرارى ، فيظلم اليوم الذى ينتظرها و ييتئس ؛ ولم يعرف أحد ما تعانيه غيرى ، فقط كنت أفهم تماماً حقيقة ما فى قلبها . وفى هذا الصراع تحطمت صحتها ، وذبل وجهها ، ونحل جسمها ، وانحطت قواها ، مما يهدد بفناء سريع ؛ وأحسست أنها ستموت إن لم تعد إلى البيت ، فأعدتها إليه . . . »

وعادت أميلى إلى الأبراشية والبرارى التى ترعرعت بين أحضانها ، فاستعادت صحتها ، وعاودها إشراقها ونضارتها ، ولكن التجربة القاسية قضت على البقية الباقية من هدوء النفسى ، وخيل إليها أنها فتاة يتيمة طريدة ، لا تملك حق السيطرة على حياتها ، ولا تجد حولها من تحبه أو يحبها . وتملكها هذا الشعور الجديد ولم يفارقها منذ ذلك الوقت ، وولد فى مخيلتها ( هيثكليف ) بطل ( مرتفعات وذرنج ) — . . . الصبى اليتيم الطريد الذى لا تعرف له أسرة ولا وطن .

ولما فاضت بها الأحزان أمسكت القلم ، وقرضت الشعر سراً ، وأخفت

قصائدها فى حذر ، لأن تلك القصائدكانت صورة نفسها الحقة التى لا تريد أن يكشفها إنسان ، أوتقع عليها عين الآخرين .

ولم تكن الأشعار عمل إميلى الوحيد خلال هذه المدة ، فعند عودتها وجدت أن تابى العجوز قد سقطت — وهى فى طريقها إلى القرية — فكسرت قدمها ، فكلفت الشاعرة الصغيرة بجميع الأعمال المنزلية مرة أخرى، فقامت بطهى طعام الأبراشية ، وكى ملابس جميع أفراد الأسرة ، وعجن الخبز ومختلف أنواع الكعك ، وكنس حجرات الدار ومسحها كل يوم . ورضيت بكل هذه الأعمال المرهقة ، وأتقنت أداءها كأى خادم محترفة ، فكان خبزها طيباً ، وطعامها شهياً ، وغسيلها لا عيب فيه . ولم يشغلها عملها عن الثقافة و الاطلاع ، فكانت تضع دائماً كتاباً على مائدة المطبخ تسترق إليه النظر ، كلما خلت دقيقة من العمل .

وفى ذلك العهد تلقى برانويل أول صدمات حياته : فقد كان بلا ريب أنبغ أولاد برونتى جميعاً ، وأحس هو بنبوغه وعبقريته ، وأسمعه الناس آيات المديح والإطراء ، وطأطأ الوالد رأسه له احتراماً ، وأحرقت الأخوات الثلاث البخور عند قدميه ، فامتلأ قلبه بالثقة والغرور ، وخيل إليه أن أبواب العلم والمجتمع قد تفتحت أمامه ، لتتلقفه بالترحيب ، وأن المجد هو المستقبل الوحيد الذى ينتظره ، ولم يدخل الفشل قط فى تقديراته واعتباراته. و بهذه الثقة ، وتلك الروح سافر إلى لندن ، ليلتحق بالأكادومى الملكية ، ولكن الأكادومى لسبب ما رفضت قبوله ، فصدم بالرفض صدمة قوية غير

منتظرة ، وتبين للمرة الأولى أن الحياة قد لا تسير وفق هوى الأنسان ورغباته ، فعاد إلى الأبراشية مخذولا ، وقد بدأ يستيقظ من حلمه الماضى الجميل . وأثرت الصدمة على نفسيته ، فزايله الكثير من مرحه السابق ، وأقبل على حانة الثور الأسود ، ليفرغ فى كئوس الخمر متاعبه وأحزانه .

* * *

فى أواخر عام ١٨٣٦ عادت تشارلوت وآن من المدرسة ، لقضاء عطلة عيد الميلاد ، فاجتمع شمل الأسرة من جديد ، و بدأت ثانية معركة الأدب بينهم ، وهجرت تشارلوت كتابة النثر ، وكرست جهدها للشعر ، وهكذا فعل صديقها برانويل . وحركت الحياة الجديدة أطماع الفتى مرة أخرى ، فزايله الحزن والوجوم ؛ وعاوده أمل جديد ، وهو أن ينشد فى عالم الأدب اسما بعد أن فشل فى عالم الرسم . ولم تنطق إميلى بكلمة عن قصائدها العدة ، ولم يهتم أحد بمعرفة ما تفعله وحدها فى حجرتها المغلقة كل ليلة .

وفى شهر يناير عام ١٨٣٧ بدأت مطامع تشارلوت و برانويل تأخذ شكلا جديا فى الشعر ، واقتنعا بأنه لا فائدة من الاستمرار فى النظم دون رأى راجح يرشدهما ، و يوجههما التوجيه الصحيح ، فاتفقا على استطلاع رأى بعض قادة الأدب ونقاده فى البلاد ، وكتب برانويل خطابا رقيقاً إلى وردزورث العظيم ، يسأله الحكم على قصيدة من نظمه و يقول فيه :

سيدى . .

أتقدم إليك راجياً ملحاً فى أن تقرأ قصيدتى المرسلة ، وأن تصدر الحكم

عليها بما تراه ، فقد عشت منذ ولادتى إلى الآن — وقد بلغت الآن التاسعة عشرة من عمرى — بين جبال منعزلة بعيدة ، ولذلك ليس فى مقدورى أن أعرف من أنا ، أو ما يمكننى القيام به : فأنا أقرأ مثلا ، لأن الطبيعة تدفعني إلى ذلك مثلما تدفعنى إلى الأكل والشرب ، وأكتب كما أتكلم تماما بدافع ما يجول فى ذهنى ، وبوحى ما يحسه شعورى . أما عن الغرور فليس فى حياتى مجال يغذيه ، ما دام العالم — حتى هذه الساعة — لايحوى ستة أشخاص يعرفون أننى خططت سطراً واحداً .

ولكن الأمر يختلف الآن يا سيدى ، فلقد تقدم بى العمر ، وحق على أن أفعل شيئاً من أجل نفسى ، وأن أستغل مواهبى ، وأوجهها إلى نهاية واضحة مقررة ؛ وما دمت أجهل قدر هذه المواهب ، فمن واجبى إذاً أن ألجأ إلى غيرى ، ليخبرنى بقيمتها الحقيقية ، وما تساويه في الحياة ، حتى إذا كانت تلك المواهب تافهة ، فالوقت أثمن من أن أضيعه فيها . . »

وأرسلت تشارلوت فى نفس الوقت خطابا مماثلا إلى روبرت سوذى الشاعر الكبير ، والناقد المعروف ، وانتظر الاثنان الرد فى قلق وتوجس ؛ ولكن الأيام مضت متثاقلة ، ولم تصل الإجابات المنشودة ، وبعد مدة طويلة تلقت تشارلوت من روبرت سوذى خطابا رقيقاً حذراً ، وإن كان أبعد ما يمكن عن التشجيع ، وفيه نصحها أن تبتعد عن الأدب « لأنه طريق خطير فى الحياة ، فما هو بصناعة المرأة ، ولا يجب أن يكون »

وكان الخطاب لطمة شديدة لتشارلوت ، ومعولا قاسياً هدم آمالها البعيدة

وأحلام ماضيها ومستقبلها ، ولكنها خضعت لمشورته ، وعملت برأيه وهجرت الشعر ، وكتبت إليه تقول :

« لن أطمع يوما فى رؤية اسمى مطبوعاً على ورق ، وإذا تحركت الرغبة فى نفسى مرة أخرى ، فسأنظر إلى خطاب سوذى وأكبتها .. »

ولقد عاش سوذى ليرى تشارلوت برونتى تتربع على عرش العظمة والمجد وكتابها « چين إير » تتلقفه أيدى الجماهير فى عاصفة حامية ؛ وتساءل الناس فى عجب : أحقيقة لجأت المؤلفة النابغة يوما إليه ، فنصحها بالابتعاد عن الأدب ؟ ؟ ولكن إنصافا للشاعر الكبير نقول : إنها أرسلت إليه قطعة شعرية ، وأشعار تشارلوت برونتى تافهة لا جمال فيها ، فكان إذاً على حق فيما كتبه إليها .

أما برانويل فلم يتلق إجابة ما من وردزورث على الرغم من أن الشاعر العظيم تلقى خطاب الفتى واحتفظ به ، وقد يكون ذلك لأن أشعار برانويل أيضاً كانت ضعيفة متصنعة ؛ ولكن العجيب فى الأمر أن الكاتب الكبير لم يتبين فى خطابه المرفق مع القصيدة موهبته الفذة فى النثر ؛ وعلى أى حال فقد تلقى برانويل الصدمة الثانية فى حياته ، وفشل فى عالم الأدب كما فشل فى عالم الرسم ، وانتابه يأس شديد أظلم حياته ، فتضاعف تردده على حانة الثور الأسود .

* * *

انتهت العطلة المدرسية ، فانتهت معها أحلام الماضى الجميل ، وطلقت

تشارلوت الأدب طلاقا حازماً ، لا رجعة فيه ؛ وعادت إلى مدرسة مس وولر مع أختها آن ، ولـكنها لم تنس — قبل الذهاب — أن تقتحم عزلة إميلى مرة ثانية ، وأن تسدد إلى قلبها سهما جديداً . ولم يرضها أن تبقى أختهـا فى البيت كلاً على الأسرة ، مع أن إميلى كانت تعمل فى الأبراشية بما يزيد على قيمة طعامها الضئيل ؛ واهتدت تشارلوت إلى معهد صغير بالقرب من هاليفاكس ، تديره سيدة قاسية اسمها مسز پاتشت ، فأرسلت أختها اليه لتعمل مدرسة ، ونسيت أن تجربة روهيد منذ عام واحد كادت تقتل الفتاة المرهفة الحساسة .

واستقرت إميلى فى حياتها الجديدة مرغمة لا راضية ؛ وما كادت تبتعد عن الأبراشية ، وتحرم البرارى الخلابة حتى ذبلت مرة أخرى ، واصفر وجهها وغارت عيناها ، وازداد جسدها نحولا . وأنشبت مسز پاتشت أظافرها فيها ، فقاست الفتاة الموهوبة ألوان الذل والاستعباد والمهانة ؛ وكانت تعمل كل يوم من السادسة صباحا إلى منتصف الليل دون توقف . وكتبت تشارلوت إلى الن ناسى تقول :

« تسلمت منهـا خطابا واحداً منذ الرحيل ، وقد ضمنته وصفاً فظيعاً لواجباتها هناك : عمل قاس من السادسة صباحا إلى منتصف الليل ، لا تتخلله راحة أكثر من نصف ساعة . هذا ما يسمونه المرتب ، وأخشى أنه لن يمكنهـا الاحتمال . . »

ولم تشك إميلى بعد ذلك أو تتكلم ، فأى فائدة من الشكوى والـكلام ؟

إن تشارلوت تعرف ما تقاسيه ، ومع ذلك تصر على بقائها فى العمل ؛ وتعلم أيضاً أن أختها لا تستطيع الحياة بعيداً عن براريها الجميلة ، وعلى الرغم من ذلك تدفعها مرة بعد أخرى بعيداً عن مورد الحياة ، ومنبع الحرية . وزادت صورة اليتيمة الطريدة فى مخيلتها وضوحا ، وتضاعف عدم إيمانها بالدنيا وبالدين ، ونما بين جنبيها وترعرع بطلها الأسود « هيثكليف » وعاش هو الآخر فى أسرة كبيرة ، ولكن أحداً من أفرادها لم يحببه أو يعطف عليه ؛ وقاسى على يدى من يعيشون حوله ألوان الذل والمهانة ، فلم يشك ولم يتكلم بل ظل صامتاً مثلها يطوى ألمه بين طيات قلبه ، فلما اشتد به الألم وفاض ، تحجر قلبه وجمد شعوره ، ووقف فى الحياة ، لا كما يقف البشر ، بل كما تقف صخرة عظيمة شاهقة ، تتحطم فوقها الجماجم والقلوب ، فلا تخدشها هذه الأحداث ، أو تحركها من مكانها قيد أنملة . وخرجت إميلى من التجربة الجديدة أشد روحا ، وأقوى عزماً وجبروتاً ؛ ولكن الصحة خانتها ، ولم تمض شهور حتى أشرفت على الفناء مرة أخرى ، فاستدعاها مستر برونتى إلى البيت على عجل .

# ٧

أقبل عام ١٨٣٨ وتشارلوت مازالت تعمل مع مس وولر ، وتقضى أيامها وحيدة بين جدران حُجر عملها ونومها ، وقد تخاذلت صحة آن فى أواخر العام المنصرم ، وأصابها ضعف وسعال شديد ذكر تشارلوت بأعراض السل الذى فتك بماريا و إليزابث . وتحت تأثيرهذا الرعب اشتبكت مع ناظرتها القديمة فى نقاش حاد ، واتهمتها بإهمال أختها ، وعدم العناية بها ، وانتهى الأمر بأن استدعى مستر برونتى ابنتيه إلى الأبراشية . و بعدعطلة عيدالميلاد بقيت آن فى رفقة إميلى ، وعادت تشارلوت إلى عملها مرة أخرى بعد أن زال غضبها وانقضى .

وكانت حياتها فى المدرسة ضيقة محدودة ، فهى تبالغ فى القيام بواجبها ، ولا تمنح نفسها نزهة أوراحة . ومع أن مس وولر كانت تحبها ، وتبذل جهدها فى توفير أسباب الراحة والسعادة لها أبت أن تستفيد من هذه الروح ، وأصرت على دفن نفسها بين الكتب والورق ، ورفضت قبول دعوات صديقاتها لقضاء عطلة نهاية الأسبوع فى بيوتهن الأنيقة ، خشية أن تعوقها النزهة عن تأدية واجباتها المدرسية كاملة . وطبيعى أن يعجز جسدها النحيل

عن احتمال جهدها الكبير ، فضعفت صحتها وانحطت قواها سريعاً .

وأثر الضعف هـذه المرة على روحها المعنوية ، فانتابتها ثورة نفسية ، وأصابها تشكك فظيع فى دينها وعقيدتها ، وأرادت صديقاتها إعادة الإيمان إليها بالمناقشة والبراهين ، فزادها الأمر تشككا و بعداً عن الإيمان ؛ وكتبت إلى إلين ناسى تقول :

« لم تتحسن حالى عما كانت ، ومازلت فى حالة تشكك محزن فظيع ، حتى أننى فى هذه الدقيقة لأرضى عن طيبة خاطر أن أتخطى الشباب بما فيه من متع ومسرات ، وأصبح عجوزاً شمطاء تقف على حافة القبر ، إذا كان ذلك وسيلة مؤكدة للتوفيق بينى و بين الله . . . . »

وانتهى الأمر بأن عجزت عن مواصلة التدريس ، فهجرت عملها ، وعادت إلى الأبراشية مرة أخرى .

وفى أوائل صيف ذلك العام اجتمع شمل الأسرة من جديد ، وانتهت آمال تشارلوت بلا شىء : فلقد أرادت أن تجعل من نفسها شاعرة ، ففشلت فى رغبتها كل الفشل ، ثم قنعت بالعمل ، فشاء الله أن يقعدها عنه ، وحتى عجزتا إميلى وآن عن سلوك الطريق الذى رسمته وأرادت أن تعدهما له . وكانت هذه أقسى فترات حياتها ، فقد تخلت عنها أحلامها وآمالها ، ومنيت بمختلف ألوان الإخفاق ، فقبعت بين جدران الأبراشية فى انتظار المزيد من الصدمات والمضايقات .

كانت تشارلوت إذ ذاك قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، و برز

قبحها ، وتجلى عن ذى قبل ، فازداد شعورها بالنقص ، وتضاعفت عقدتها النفسية ، وأحست أن الطبيعة قد حرمتها مما يجذب الرجال ، فكرهت الرجال وحقدت عليهم ، وابتعدت عن صحبتهم ، وقنعت بأن تبحث دائماً عن عيوبهم ، بدل أن تعترف بميزاتهم الظاهرة ؛ ولكنها احتفظت بكبريائها العظيمة ، ولم تتهافت على الفرص القليلة التى سنحت لها .

وفى شهر مارس أرسل إليها هنرى ناسى — شقيق إلين — يعرض عليها الزواج ، وكتب إليها خطاباً عملياً بمعنى الكلمة يخبرها فيه أنه ينوى قلب بيته إلى مدرسة ، ولذلك فهو فى حاجة إلى زوجة تعنى بالطلبة والطالبات. ولم تقبل تشارلوت العرض المهين ، ورفضته فى حزم وقسوة شديدة ، ولم يتحطم قلبه لهذا الرفض ، لأنه لم يكن فى الواقع يحمل لها شيئاً من الحب ، وبعد أشهر ستة كتب إليها خطاباً ثانياً يزجى فيه خبر عثوره على سيدة أخرى تدير مدرسته وتشاركه فى حياته !

***

كان برانويل قد بلغ الواحدة والعشرين من عمره ، ومع ذلك لم يجد عملا، ولم يحترف مهنة ما ، وانقضت أيامه ولياليه فى حانة الثور الأسود يغرق فى كئوس الشراب آلام فشله ، وضيعة آماله وأمانيه . وأغمضت تشارلوت عينيها عن الهوة التى ينحدر إليها ، إيماناً بنبوغه ، وثقة بما ينتظره من مستقبل عظيم ؛ ولكن إميلى وقفت ترقب تطوراته الجديدة حزينة واجمة ، وعندما سافر إلى برادفورد من أجل محاولة أخرى فى عالم الفن ، حزنت على فراقه

فى صمت ، و بين جدران حجرتها نظمت من أجله قصيدة الغياب :

« واحد ذهب ، ومن أجله خبا الموقد ، ورحل السرور . »

« واحد ذهب ، ومن أجله ذبلت الخدود ، ودمعت العيون . »

ولم يستفد برانو يل من الرحلة إلى برادفورد ، و بدل أن يقبل على الفن تصادق مع صغار الفنانين المحليين ، وقضى لياليه معهم فى الفنادق والحانات؛ و بعد شهور قلائل كف والده عن الانفاق عليه فاضطر إلى العودة ثانية إلى هاوارث.

* * *

وما كادت تشارلوت تستعيد صحتها ، وهدوءها النفسى حتى زايلها اليأس وعاودها النشاط ، وتحركت آمالها من جديد نحو العمل ، لانحو الشعر ، فقد كانت إجابة رو برت سوذى ما تزال ماثلة فى ذهنها . واستقر رأيها أخيراً على تجر بة حظها فى الأسرات ، فأرسلت شقيقتها آن لتر بية أطفال مسز آنجهام ، والتحقت هى بأسرة چون بنسون سيدويك فى ستون جرا بى .

وقاست الفتاة الطموح مذلة هذه المهنة التى لم تكن فى ذلك العهد تختلف كثيراً عن وظيفة الخادم : وكان البيت كبيراً جميلا ، ولكن حياتها فيه غدت عبودية لاتحتمل ، فالأطفال فى ضجيج دائم ، لا يردعهم لسان ، ولا يقيدهم نظام ؛ ومسز بنسون تترفع عن الاختلاط بالمر بية الجديدة . كتبت تشارلوت عنها إلى إلين تقول :

« . . . تتحدث كثيراً ، ولكن قلما كان حديثها فى الموضوع ؛ ولا يعنيها

من أمرى شيء ، ولا يهمها إلا أن تنتزع منى أكبر مقدار من العمل .
ومن أجل هذا الغرض تغرقنى بسيل لاينقطع من الحياكة وأشغال الإبرة .
والآن أرى بوضوح أن مربية الأطفال لايشعر أحد بوجودها ، ولا تعتبر مخلوقاً حياً عاقلا ، إلا فيما يخص الأعمال المنهكة التى يجب أن تقوم بها ...»

ولكن مستر بنسون كان يفضل زوجته .

« . . . أطيب أخلاقاً وأرق قلباً ، لايطلب منى أبداً أن أمسح أنوف أولاده القذرة ، أو أربط أشرطة أحذيتهم ، أو أحضر ملابسهم ، أو أقدم مقعداً لأحدهم . . . »

وبعد بضعة أسابيع من التحاقها بعملها الجديد سافرت الأسرة لتمضية العطلة فى قصرهم الريفى وامتلأ البيت بالأضياف الأرستقراطيين المرحين وأقيمت الحفلات الكبيرة الفاخرة ولكن تشارلوت ظلت حبيسة حجرتها لاتتمتع بشيء من هذه اللذات، لأن مربية الأطفال كالخادم يجب أن تبقى على مبعدة حتى لا تعكر صفو الاجتماعات بوجودها ! وبقيت فى حجرتها تبكى ، ولكنها تعود على نفسها باللائمة وتقول : «إن الفقراء خلقوا للعمل ، لا للمرح والسرور » .

وبعد أشهر ثلاثة تحطمت صحتها ، فتخلت عن عملها ، وعادت إلى هاوارث ؛ لكن الأحزان التى قاستها فى بيت بنسون سيدويك أفادتها فيما بعد ، فقد احتفظت بتلك الأحزان ، وطوتها بين جنبيها ، لتفرغها فيما بعد فى كتابها « چين إير » . ولا شك أن الوصف الرائع لحياة چين

المربية ، والمهانة والاحتقار التى تجرعتهما على أيدى ضيوف مخدومها مستر روشستر صورة حقيقية استقتها من تجاربها الخاصة مع آل سيدويك .

* * *

وفى أواخر عام ١٨٣٩ — بعد أسبوعين من عودتها — واتت تشارلوت فرصة ثانية للزواج : فقد هبط يوماً على الأبراشية ضيف جديد هو القس برايس خريج جامعة دبلن . وكان برايس هذا شاباً ذكياً خفيف الروح طلق اللسان ، لكن ينقصه الجلال والوقار ؛ ورأت تشارلوت كعادتها عيبه فى الحال ، ومع ذلك ضحكت من نكاته ، وأعجبت بحديثه وكلامه . وعندما رحل الضيف تسلمت منه خطاباً يطلب فيه الزواج ، فأجابت برفض قاطع حازم ، لأن كبرياءها لم تسمح لشعورها بالقبح أن يهبط بها عن المثل الأعلى للزوج الذى تنشده .

وعلى الرغم من أن هذا الحادث حرك قلب تشارلوت بعض الشىء ، ودفعها إلى التأمل والتفكير ، غير أن الحياة طابت لها فى الأبراشية ، وعاودها المرح والهدوء بين أهلها وعشيرتها ، ولم تفكر فى هجر البيت ثانية ، للبحث عن عمل جديد ؛ وأرادت المقادير أن تشغلها عن نفسها قليلا ، فألقت إلى الأبراشية بقس صغير — هووليم وايتمان أول مساعد للوافه فى كنيسة هاوارث — لم يستطع كسب عطفها واحترامها ، فصبت على رأسه جام كراهيتها للرجال ، ونقمتها عليهم .

وكان وايتمان شاباً مثقفاً جميل الشكل ، ولكنه مرح يحب المغازلة ،

ولذلك قدم فروض الولاء والطاعة لجميع حسان الفتيات فى المقاطعة ، وأجزل لهن الحب والإعجاب ، فأثار سلوكه غضب الفتاة المحرومة من كل حسن وجمال وكرهته وحقدت عليه ، وامتلأت خطاباتها بالحديث الساخر عنه ، وغمرته هو والقساوسة أمثاله بسيل من الشتائم القاسية، والإهانات البالغة، «لأنهم قوم مغرورون فارغو العقل يجرون وراء مصالحهم الخاصة » . وعندما خيل إليها أن إلن ناسى تعجب به جعلت تحذرها الطريق الذى تسير فيه ، وتفهمها أنه رجل ماجن يوزع نظراته الساحرة على كل الفتيات بالعدل والقسطاس حتى خلال قيامه بواجباته الدينية .

وفى هذه الفكاهة الكبيرة كانت إميلى الصامتة تلعب وحدها دوراً جدياً خطيراً : فقد أحبت القس الجميل المرح ، وطوت له فى قلبها عاطفة لم تكنها لرجل من قبل ؛ ولكنها ظلت تقف بعيداً ، وترقب الحوادث دون كلمة تفضح سرها ، أو إشارة تكشف عن حبها ؛ فما كانت إميلى بالمرأة التى تقبل على الرجال قبل أن يسعوا حثيثاً خلفها ، وفى حجرتها الصغيرة نظمت قصيدة تقول فى جزء منها :

« وبدموعى الكثيرة التى سكبتها ، »

« وساعات حزنى الطويل ، »

« سأكسبك حتما يا حبيبى ، »

« وأنال قلبك من جديد . »

وتملكها اليأس والحزن ، وأحست أنها تشقى دون جدوى ، وتحب

دون أمل فى الحياة ؛ فازداد بطلها الأسود وضوحاً ، وكبر « هيثكليف » وترعرع فى مخيلتها ، وأحب هو الآخر كاترين الجميلة فى يأس وقنوط ، وهو يعلم مثلها أن حبه لن يجد مردداً أو مجيباً .

وأيقظتها تشارلوت من أحلامها الطويلة بمشروع جديد هبط على قلب إميلى كالصاعقة ، فقد بدأت تفكر فى فتح مدرسة تقوم هى وأختاها بإدارتها والتعليم فيها ، واختمرت الفكرة فى ذهنها ، ورسمت الخطة الكاملة لها : فبقليل من المال ، و بإضافة بناء صغير إلى الأبراشية يمكن أن تنقلب الدار إلى مدرسة داخلية طيبة . ولكن المشروع فى حاجة إلى المال ، فمن أين لها بالنقود ؟ تذكرت خالتها التى تملك ثروة تدر عليها دخلا يبلغ خمسين جنيهاً فى العام ، فماذا يمنع لو أنها اقترضت منها ما بقى من نفقات المدرسة ؟ ولكن الخالة لم تكن على استعداد للمخاطرة بثروتها فى مشروع قد يفشل ، و يودى بنقودها ، واحتاج الأمر إلى إقناع طويل .

# ٨

فى خلال عام ١٨٤٠ كانت تشارلوت ما تزال صديقة برانويل ، وأخته المفضلة بين الجميع . ورأت فيه — على الرغم من كثرة زياراته لحانة الثور الأسود — ما يبشر بمجد وشهرة ومستقبل باهر . ولم تكن تشارلوت مبالغة فى هذا الشعور ، فبرانويل — ولا شك — كان أنبغ أولاد برونتى جميعاً ، وأعظمهم صفات ومواهب ، ولولا المصير الأسود الذى انحدر إليه فيما بعد لخلد اسمه بين عمداء الأدب فى التاريخ الإنجليزى : فقد سما أسلوبه إذ ذاك ، وبلغ من الجمال والسلاسة والموسيقى ما يأخذ الألباب ، ونضج شعره عن ذى قبل ، واتزنت أفكاره ، واتسع خياله ، وكل ذلك صفات تخلق من صاحبها كاتباً عظيماً ومؤلفاً كبيراً .

ومع الصدمات المتكررة التى قابلها فى طريق آماله وأطماعه بقيت تشارلوت على ثقتها القديمة فيه ، وظلت تحرق بخور الولاء والإجلال عند قدميه ، وتجد لذة عظيمة فى الاشتراك معه فى أعماله الأدبية .

ولم يكن من المعقول أن يبقى الفتى بين جدران الأبراشية دون عمل ، فجعل يبحث هنا وهناك عما يليق به ، بعد أن خذله الأدب والرسم ، ولم

يمكناه من الوصول إلى ما يبتغيه ، فلما لم يجد عملا لائقاً نزل مضطراً عن المستوى الذى يريده خطوة خطوة ، وانتهى الأمر بأن شغل وظيفة كاتب فى محطة صغيرة فرعية تتبع سكة حديد ليدز ومانشستر .

وتيقظت تشارلوت فجأة من غفوتها ، وتبينت الحقيقة المرة ، وأصيبت آمالها فيه بصدمة عنيفة لم تكن تتوقعها : برانويل يصبح كاتباً صغيراً ؟؟!! أين العظمة والشهرة التى تنتظرها له ؟؟ أين المواهب الفذة التى توسمتها فيه ؟؟ لقد ضمته إلى صدرها ، واصطفته من بين أخواتها أملا فى أن يصبح شيئاً مذكوراً فى الحياة ، وها هو ذا ينتهى إلى شر غاية ، فيا لضيعة الآمال والوقت !! وانقلب حبها فجأة إلى كراهية ، واحترامها إلى احتقار ، وتقديرها إلى سخرية . وكتبت إلى إلن ناسى :

« شخص اسمه باتريك[1] ينتمى إلىّ من بعيد قد شد رحاله ، ليبحث عن الرزق ، فى عمل عظيم كله مغامرات ومخاطرات ، ملىء بالفروسية والفن الجميل ألا وهو وظيفة كاتب فى سكة حديد ليدز ومانشستر !! ..

وفى عام ١٨٤١ بدأت الخالة تلين أمام تشارلوت ، وتستجيب لفكرة إمكان فتح مدرسة فى دار الأبراشية ، ورأت الآن أن المشروع قد ينجح فيحفظ مالها ، ويعود بالخير على بنات أختها ؛ ولكنها نصحتهن بالمران والتروى قبل المجازفة . وفى الحال بدأت تشارلوت تبحث عن وظيفة لها ، وأخرى لآن ، أما إميلى فلم يجرؤ أحد هذه المرة على إبعادها عن البيت .

---

(١) باتريك هو الاسم الأول لبرانويل برونتى .

وعندما أقبل الربيع سافرت الإثنتان إحداهما لتعليم أولاد مستر هوايت بالقرب من برادفورد ، والأخرى لتربية أطفال قس عجوز اسمه روبنسون

وما كادت تشارلوت تحل فى بيت مستر هوايت حتى عاودها شعورها بكراهية من لا تجمعهم بها صلة القرابة ؛ وعلى الرغم من أنهم أحسنوا استقبالها ، لم تقدر هذا العطف منهم ، وظلت تنتظر فى حذر الخشونة والاحتقار فى المعاملة . كتبت بعد يومين تقول :

« ليس لدى حتى الآن سبب للشكوى من عدم التقدير أو القحة فى المعاملة . . . »

وكانت تشارلوت بطبعها تكره الأطفال ، ولا تميل إلى صحبتهم ، أو التحدث اليهم ، ولذلك لم تعطف على تلميذيها الجديدين ، ولم تحاول اكتساب حبهما ؛ وفى رسالتها إلى إلين قست عليهما قسوة لا مزيد عليها واعتبرتهما خشنين غير مهذبين .

وتوثب خجلها الطبيعى الشاذ ، لينغص عليها حياتها ، ويحول بينها وبين الراحة والسعادة ، ومما كتبته فى ذلك :

« أجد من الصعب جداً أن أسأل خادماً أو سيداً عن شىء أريده ، مهما اشتدت بى الحاجة إلى هذا الشىء . ولأن احتمل أعظم المضايقات أهون علىّ من أن أطلب إزالتها . . . . أعرف أننى بلهاء ولكن يعلم الله أنه لا حيلة لى فى ذلك . . . »

وكانت الوظيفة فى الواقع مرضية ، وأبعد ما يمكن عن الفظاعة التى

تتخيلها ، فالسيد هوايت رجل طيب القلب كريم الأخلاق ، له زوجة فاضلة عطوف ، وأولاد مهذبون ؛ وحاول الكل أن يكتسب محبة تشارلوت فباءت المحاولة بالفشل ؛ والدليل على كرم أخلاقهم أن أرسلوا دعوة إلى مستر برونتى ، ليأتى الى زيارتهم ، ويقيم فى ضيافتهم بضعة أيام . وكان الوافه على أتم الاستعداد لقبول الدعوة ، ولم يقعده عنها إلا خطاب شديد من ابنته تمنعه فيه عن المجىء ، لأنها لا تريد من مخدومها جميلا يطوق عنقها

وهذا الشذوذ — دون شك — كان عقدة تشارلوت ؛ ومبعث حزنها ومنبع آلامها طيلة حياتها؛ فشعورها بقبحها الشديد ، قد ولد فى نفسها نقصا مركباً دفعها إلى بدء الناس بالكراهية والعداء ، وجعلها أميل الى إظهار أخطائهم ورذائلهم منها الى ذكر حسناتهم وفضائلهم . وسلوكها مع آل هوايت صورة صادقة لهذا الاحساس ، فعطفهم عليها ، ورقتهم معها لم تحرك قلبها أو تخضعه ، بل تقبلت الأمر فى حذر وتخوف ، اعتقاداً منها أن هذه المعاملة زائفة تخفى تحتها رغبة فى الخيانة ، واستعداداً للنيل من كرامتها ، ولأنها كانت شديدة الخجل أحست فى حضرتهم بالضيق الشديد ، ولم تحاول أن تحلل أسباب هذا الضيق ، أو تصل الى دوافعه ، بل عزته إلى نقص فى أخلاقهم ، واعوجاج فى شخصيتهم !

وكانت فكرة افتتاح مدرسة خاصة هى الشعاع الوحيد الذى ينير حياتها فى الوقت الحاضر ، ويبعد ذهنها فى بعض الأحيان عن أفكاره الشريرة ، واحساساته الشاذة نحو الناس . وحدث إذ ذاك أن قررت ناظرتها القديمة

مس وولر هجر مهنة التعليم ، فارسلت إلى تشارلوت تعرض عليها المدرسة برياستها و إدارتها دون مقابل ؛ وهى فكرة عظيمة تحقق أمل إبنة برونتى دون الحاجة الى الاقتراض . واستسلمت تشارلوت الى تفكير طويل : أتترك الخالة وشأنها وتقبل العرض؟ ولكن لا ، لن تفعل ذلك ، فباستطاعتها أن تضرب عصفورين بحجر واحد ، وما دامت الخالة قد رضيت تقديم المال ، فلتنتهز هذه الفرصة ، وتستفيد من المبلغ بطريقة ما . وهداها التفكير أخيراً الى فكرة ثاقبة ، وهى أن ترجىء قبول المدرسة ، وتسافر إلى بروكسل للدراسة فى معهد بلجيكى ، لمدة ستة أشهر ، تعود بعدها الى بلادها بمؤهلات تجذب أنظار الأهالى ، فتقبل الطالبات على مدرستها . ولم تلبث أن كتبت إلى الخالة تعلنها بالفكرة الجديدة ، وتقنعها أن المال لن يذهب سدى إذا انفق فى التعلم ، بعد أن وجدت المدرسة والأدوات . وأجابت الخالة بالموافقة ، فهجرت تشارلوت عملها غير آسفة فى أواخر عام ١٨٤١ استعدادا للسفر مع إميلى إلى بلجيكا ! وكتبت إلى إلين تقول :

« . . . أردت أن تشاركنى فى هذه الميزة إحدى أختى على الأقل . . »

* * *

فى خلال غيبة تشارلوت ، وعملها فى بيت آل هوايت طابت الحياة لإميلى ، وانكبت على واجباتها المنزلية دون كلال أو ملل وكانت قد اعتادت هى وآن أن تكتب كلتاهما للأخرى ورقة سرية كل عام ، فلا تفتح تلك الورقة إلا بعد سنة من كتابتها . وتصف الواحدة منهما فى ورقتها أحداث العام

الذى مضى وآمال المستقبل وأحلامه ؛ ومن الوريقة الأخيرة نرى أنها كانت سعيدة بين جدران الأبراشية مع نسرها «هيرو» ، وكلبها المتوحش «كيبر» ، «وفكتوريا» «وأديليدا» الأوزتين المستأنستين ؛ وختمت كتابتها بتحية حارة إلى «آن البعيدة المعذبة فى منفاها» . ولكن تشارلوت كانت بعيدة أيضاً ومعذبة ، ومع ذلك لم تشر إميلى إليها بكلمة واحدة ، أو ترسل لها تحية ما ، وهذا دليل عظيم على أن النفور منها قد تضاعف ولم يعد يهمها أسعدت أختها تشارلوت أم شقيت .

أما ورقة آن فكانت تقول :

« . . نحن نعمل جميعاً الآن ، لاكتساب الرزق ماعدا إميلى ، ولكنها على كل حال تشتغل أكثر منا ، وتكتسب رزقها كما نفعل بفضل ما تقوم به من عمل كثير فى الأبراشية . . . »

فلم هذا التعليق والتوضيح ! لابد أن شخصا ما ذكر بقاءها فى البيت وانتقده ، مما حمل الأخت على الدفاع ؛ ولا شك أن تشارلوت هى ذلك الشخص ، بدليل أنها قررت أن تصحب إميلى معها إلى بلجيكا ، لتعدها لمهنة التدريس ، مع أنها تعرف تماماً ما يحدثه فيها البعد عن البرارى المحبوبة وعلى الرغم من أن آن كانت أحق بالذهاب ، لما تقاسية فى بيت روبنسون من تعس وشقاء ؛ وهكذا فضلت «أن تترك آن فى عذابها ، وأن تعذب إميلى بالرحيل» .

ولكن أوراق إميلى وخطاباتها لآن كانت فى الواقع زيفاً وخداعاً ، ولم

نحو شيئاً عن حقيقة الشعور الذى يعتمل فى قلبها ، والتشاؤم الذى وصفته سراً فى شعرها وقصائدها كقولها :

« أرى حولى قبوراً داكنة ، »

« تنشر ظلالها من بعيـد . »

و بين سطور هذا الشعر نحس باليأس المؤلم الذى يتجلى بعد ذلك فى « مرتفعات ويذرنج » ، : فكاترين إيرنشو — بطلة القصة — تحلم بالموت مثل إميلى ، وترى رؤيا فظيعة ، وتحلم أنها ماتت، وصعدت روحها إلى السماء لتعذب وتقاسى الآلام ، ويلقى بها الملائـكة الغاضبون خارج الجنة ، فتستيقظ من حلمها وهى تبكى فرحاً ، لأنها مازالت على قيد الحياة تعيش بين البرارى الواسعة التى تحبها .

و يأس إميلى الحقيقى كان يختلف فى مبعثه عما صورته فى كتابها عن كاترين ، وإن تشابه معه فى الثورة والشدة : فهى تحب دون أمل سعيد قادم ، وتطوى حبها بين ضلوعها ، ولا تصـارح به أحداً حتى آن . وهى أيضاً تقاسى فراغاً ووحشة نفسية بدأت منذ طفولتها ، ثم نمت على مر الأيام ، مما ولد فى نفسها شعوراً أصبح الآن حقيقة صارخة تقول : إنها طريدة وحيدة سجينة ، لا تملك حق التصرف فى حياتها ، أوتوجيهها كما تشاء . وشعورها الثائر الغاضب منحها فلسفة حزينة سمت بشعرها إلى أوج الجمال ، وهو مالم تستطع تشارلوت أن تصل إليه فى أشعارها أبداً . حقيقة أن الأخت الكبرى سجلت فيما بعد عبقرية نادرة فى عالم النثر ، إلا أنها اختلفت تماماً

عن عبقرية إميلي ، فتشارلوت وصفت فى كتبها جميع تجارب حياتها ، ورسمت بدقة صور الأشخاص الذين عرفتهم أوقابلتهم ، وحملت حملة شعواء على من أغضبها منهم ، أو أساء إليها أقل إساءة ؛ فموهبتها إذاً تصويرية فقط ، و نبوغها ينحصر فى قدرتها التامة على طبع الحياة ناطقة على ورق . أما إميلى فمبتكرة ، لا تخط ما تراه ، بل تصف ما يعتمل فى ذهنها ، وما تصوره ملكة خيالها الجبارة .

وهذه الفروق الحيوية بين العبقرية والنبوغ هى أكبر عامل فرق بين الأختين منذ الصغر ، وحال دون تفاهمهما ، وارتباطهما بأى رابطة من الصداقة والأخوة . ولو كانت تشارلوت تفهم أختها ، لما اقتحمت عزلتها مرة بعد مرة ؛ ولو فهمت إميلى حقيقة عقلية تشارلوت ، ودوافعها النفسية ، لغفرت لها بدل أن تنقم عليها تلك النقمة التى ظلت تلازمها إلى آخر العمر .

واستحكم النفور بين الأختين بعد مشروع السفر إلى بركسل ، فالرحيل بالنسبه إلى إميلى معناه بعدها عن براريها المحبوبة ، وحرمانها من الحرية المطلقة التى تتذوقها بين أحضان الطبيعة ، ومعناه أيضاً البعد عن وايتمان ، والحرمان من الرجل الوحيد الذى تعلق قلبها به .

والقطعة الشعرية التالية — التى تقصد بها تشارلوت — تصور شعور إميلى نحو أختها ، واستحالة قيام الصداقة بينهما :

« بين الأحزان والسرور ، »

« لا تستطيع الصداقة أن تقوم ، »

« فالقلوب الحزينـة عبثا تحاول »
« أن تنعم بالصداقة عند تخلى الآخرين. »

« أعرف حقاً أن عينك ها ذى »
« لن تقر وفى عينى الدموع ، »
« ولكن أعرف أن عينك أيضاً »
« لا تستطيع البكاء عطفاً علىّ . »

« لنفترق إذا ، فقـد ولى زمان »
« فيه تشابهنا فى الفكر والشعور ؛ »
« سأطوف وحدى عبر المحيط »
« وأهيم فوق صحارى البحار . »

« فبعد أمواجها العاليـة الصاخبة »
« جزر فيها يجول الحزن طليقاً ؛ »
« وسـينعم يا عزيزتى مرقدك »
« عندما تزول رقابة عينى عليـه . »

« ولن تضطرى صباح كل جديد ، »
« وقلبك يفيض حماسة وسروراً »
« أن تتظاهرى بالحزن والأسى »

« مجاراة لليأس الذى أقاسيه . »

« ويوماً بعد يوم تخبو أمامك ، »
« وتذهب عنك ذكرى حزينة ؛ »
« إلى أن تتقطع كل الصلات ، »
« فأنسى وأصبح حلماً لديك . »

وكان برانويل أيضاً مبعث أحزان جديدة لبعض أفراد الأبراشية ، فقد اشتد القلق علية : إذ بعد شهور ثلاثة من تسلم عمله ، نقل إلى (لادندن فوت) وهى محطة صغيرة فرعية ، قلما يمر بها قطار ، أو يأتى اليها مسافرون، وفى هذا المكان المنعزل انقضت أيامه فى وحدة شديدة ، لا يبددها سوى صحبة حارس باب المحطة ! و برانويل شاب مرح ، يميل بطبعه إلى الصحبة والائتناس ، ولذلك ضاعفت الوحدة حزنه ووجومه ، وطاردته آمال الماضى وأطماعه ، وعذبته مواهبه الفذة ، وهى تلفظ الأنفاس الأخيرة فى صحبة الحارس ! ووازن بين حالته الراهنة وما كان يحلم به ، وخرج من الموازنة بيأس طاغ ضاعف استهتاره ، فأقبل على الخمر فى جنون ؛ وعندما حلت العطلة لم يأت إلى الأبراشية مع أنها لا تبعد عن مكان عمله أكثر من ميلين ؛ وعاد فى شهر يناير مفصولا لاعتياده الذهاب إلى الحانة وترك عمله فى عهدة الحارس ، الذى استغل هذا الاهمال ، فامتدت يده إلى خزينة المحطة . وأثبت التحقيق تقصير برانويل ، ففصل من العمل عقابا له على إهماله .

وحزنت إميلى كثيراً على ما أصاب أخيها ؛ ولكن تشارلوت غضبت وثارت ، وضاعفت احتقارها له ، ونقمتها عليه ، ونالته بلسانها الجارح ، وأسمعته كثيراً مما يخدش الكرامة ، ويجرح الكبرياء : ألا يكفى أنه جرؤ على تحطيم آمالها الكبيرة فيه فيقترف اليوم جرماً جديداً يلوث به اسم الأسرة العتيد ؟ !

وفى فبراير عام ١٨٤٢ رحلت تشارلوت و إميلى إلى باچيكا ، للتعلم فى معهد مدام هيجير ببروكسل .

## ٩

كانت مدرسة مدام هيجير معهداً أنيقاً تتعلم فيه بنات خيرة الأسرات البلچيكية ، ويضم بين جدرانه ما يقرب من مائة تلميذة بين داخلية وخارجية ؛ والمعهد نظيف أنيق ، وأثاثه فاخر مريح ، وحديقته واسعة فيحاء ، ومدرساته على مواهب كبيرة ومؤهلات عالية .

وفى بادىء الأمر أحست تشارلوت أن حياة التلميذة لاتناسبها ، فقد أشرفت على السادسة والعشرين من عمرها ، وأكبر زميلة لها لم تبلغ الثامنة عشرة بعد ؛ فضلا عن أنها اعتادت أن تكون الآمرة الناهية ، وهى الآن مضطرة إلى الخضوع لأوامر الآخرين ونواهيهم .

وعلى مضى الأيام أحبت المكان ، ووجدت فيه سعادة وراحة ، لم تتذوقهما أبداً فى عملها مربية ؛ وعرفت أنها فرصة عظيمة ، عليها أن تنتهزها، وتنهل من موردها كل قطرة ممكنة ، فقبلت الخضوع للأمر الواقع ، والاستسلام للحالة الراهنة مهما كان فيها من عيوب . ولم يكن هناك عيب ما فى حياتها الجديدة ؛ ولكن شذوذها المعهود ، وخجلها الطبيعى الشاذ ، وميلها إلى تعرف رذائل الناس قبل حسناتهم ، صور لها الكثير من النقائص

والأخطاء ؛ وكتبت إلى إلين تصف مدام هيجير :

« ... سيدة لها نفس ثقافة مس وولر وذكائها ، واتجاه أفكارها وذهنها، وإن كانت ظاهرة الشدة فيها قد خففت ، لأنها لم تصدم كمس وولر ، أو تجرح فى حياتها ؛ أو بعبارة أوضح لأنها سيدة متزوجة والأخرى عانس ... »

وكان مسيو هيجير — زوج صاحبة المدرسة — يدير المعهد أيضاً ويعلم فيه ، فقالت عنه :

« ... رجل قوى الذهن ، ولكن مزاجه متقلب غضوب . . . مخلوق صغير أسود ذو وجه متغير التعبير ، فأحياناً يستعير ملامح القط الوحشى ، وأحياناً يشبه الضبع الثائر . . . . . . وأعتقد أن الدروس القليلة التى تنازل بإعطائنا إياها ، تعتبر منحة كبيرة ، ولذلك أثارت على ما رأيت ، حقداً وغيرة فى المدرسة ... »

ولم تسلم الطالبات من نقدها اللاذع :

« ... إذا حكمنا على الشخصية الوطنية البلچيكية بشخصية معظم تلميذات المدرسة ، فهى إذاً باردة أنانية ، كلها حيوانية وانحطاط خلق ... »

ولم يكن مسيو هيجير كما وصفته تشارلوت ، فهو رجل عالى الثقافة فذ المواهب ، ولذلك عين مدرساً فى الأكادومى ببروكسل . وكان أيضاً تقياً طيب القلب ، يزور المرضى والفقراء ، ويخفف عنهم بعطفه وماله ؛ وعندما تنتهى واجباته اليومية ، يجمع العمال والفقراء ، ويعلمهم ويثقفهم ويسليهم ،

دون أجر أو مقابل ، فأحبه الناس واحترموه ، وأحاطوا اسمه وسمعته بهالة من التقدير والتبجيل .

وعندما حلت الفتاتان الإنجليزيتان بمعهده ، جعل يرقبهما من بعيد فى بادىء الأمر ، ليكشف عن حقيقة عقليتهما ، وقيمة ذكائهما الفطرى ، فوجد أن تشارلوت ذكية مجتهدة ، و إميلى فذة المواهب تسمو فوق مستوى أختها بكثير ، وأعجبه اجتهادهما و إقبالهما على الدرس والتحصيل ، فعطف عليهما ، ومنحهما من جهده ووقته ما لم يمنحه غيرهما من الفتيات .

ولسبب ما خفت حدة خطابات تشارلوت ، وتضاءل نقدها وتذمرها ، و بقيت فى بروكسل عن طيب خاطر ، ووجدت فى حياتها الجديدة فرصة لإشباع نفسها المتعطشة للعلم ، ووسيلة أكيدة لتحقيق آمالها نحو المستقبل ؛ وهدأ غضبها على مر الوقت ، وعندما أوشكت الشهور الستة أن تنقضى تغيرت نغمات خطاباتها ، واستمرأت الحياة هناك ، وكتبت تقول :

« ... أعتقد أن مسألة عودتى إلى البيت فى شهر سبتمبر ما تزال موضع الشك ، فقد عرضت مدام هيجير علينا البقاء نصف سنة أخرى أقوم أنا خلالها بتدريس اللغة الإنجليزية بدل المدرسة الحالية ، وتعلم إميلى الموسيقى عدداً من التلميذات ؛ وفى مقابل ذلك سيسمح لنا بالاستمرار فى تعلم الفرنسية والألمانية ، فضلا عن الإقامة والطعام ... » .

ولم تكن إميلى تتفق مع تشارلوت فى هذه المشروعات والرغبات ، فمنذ رحيلها وهى تعانى أبلغ التعس والشقاء ، وعاودها حنينها القديم إلى بيتها

وبراريها ، فذبل وجهها ، وتداعت صحتها وتملكها صمت ووجوم أفسدا عليها عملها ونزهتها .

وشاء الله لها الخلاص من الجحيم الذى تعيش فيه ، فقد وصلت رسالة مستعجلة من هاوارث ، يطلب مستر برونتى فيها عودة ابنتيه لمرض الخالة ؛ وفى اليوم التالى حمل البريد خبر وفاتها ، فحزمت الفتاتان أمتعتهما على عجل، وسافرتا إلى الوطن فى اليوم السادس من شهر نوفمبر عام ١٨٤٢ .

ولم تحزن تشارلوت على وفاة خالتها ، أو تبكها بدمعة واحدة ، واكتفت عند وصولها إلى الأبراشية بزيارة قبرها زيارة قصيرة ، عادت بعدها إلى البيت ، لتكتب خطابا تقول فيه :

« . . . انتهى كل شىء ، ولن نراها بعد الآن ، أما والدى فبخير ... »

و بعدأسبوعين أرسلت تدعو إلين ناسى لقضاء بضعة أيام فى هاوارث وتقول:

« . . . لاتنتظرى أن تجدينا فى حزن ووجوم ، فنحن نسير جميعاً على منهاجنا المعتاد ... »

* * *

وجدت إميلى أحزاناً جديدة تنتظرها فى الأبراشية ، فبرانويل مايزال عاطلاً عن العمل ، يقضى أيامه بين جدران الدار ، ولياليه فى حانة الثور الأسود ، لحزنه على وفاة الخالة التى كانت تعطف عليه وتدلله وتصطفيه ، ولعجزه عن الحصول على وظيفة جديدة ، رغم مابذل من جهد فى سبيل

ذلك وأقبل على رذيلة جديدة ، فتعاطى الأفيون ، وبذلك خطا الخطوة الأخيرة الحاسمة نحو نهاية محتومة مفجعة .

وحزنت إميلى جهراً على ما أصاب أخاها ، وحزنت سراً على مصاب أدهى وأمر ، فقد مات وايتمان بعد مرض قصير لم يمهله غير أيام معدودات ، فبكته فى خفية عن العيون ، ونظمت فى وداعه قصيدة رائعة عنوانها « الذكرى » تقول فى جزء منها .

« ياحبيب الشباب ، اغفرلى إن نسيتك »
« فى غمرة من الحياة ، وهو يحملنى إلى بعيد ، »
« فرغبات وآمال أخرى تشغلنى : »
« آمال قد تغشاك ، ولكنها لا تستطيع أن تخفيك »
« لم يشرق فى سمائى نور بعدك ، »
« ولا طلع على صباح جديد ، »
« فبهجة حياتى من حياتك أخذت ، »
« و بهجة حياتى معك الآن فى القبر »

وتتطور بعد ذلك أشعار إميلى ، فتصبح غاضبة ثائرة ، تتحدث مع الرياح وتناجى الليل والعواصف ، وتنادى الموت فى رغبة وشوق ، وهو دليل على أن يأسها قد اشتد حتى عافت نفسها الحياة . ولكنها لا تريد أن تموت لتذهب إلى الجنة ، فأهل الجنة لا يحسون بآلام البشر وعذاب قلوبهم ولا تريد أيضاً أن تذهب إلى الجحيم فنيرانها مهما اشتدت لن تأكل

أو تخمد رغبات قلبها الجامحة ؛ إذاً فالأرض مكانها الوحيد وعلى صدرها الحنون يجب أن ترقد ، ليفنى جسدها فى التراب ويختلط به ؛ فيصبح جزءاً مخلداً منه . الأرض هى صديقتها الوحيدة ، ومهما قست فهى لا تريد عنها بديلا:

« فى الأرض — نعم فى الأرض — ستنامين ، »
« ومن فوقك يقوم حجر أغبر ، »
« وتحتك ينتشر طين أسود ، »
« وطين أسود يغطيك .. »

وخفت آلام إميلى بعض الشىء عندما اهتدى براويل أخيراً إلى عمل ، والتحق بأسرة روبنسون ، ليعمل مع آن فى تعليم أولاد القس العجوز ، فسافر مع أخته فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٢ .

* * *

أقبل العام الجديد وتشارلوت ما تزال حائرة قلقة بين جدران الأبراشية ، لا تعرف أتعود إلى بروكسل أم تبقى فى هاوارث ؟ واشتدت بها الحيرة إلى درجة ملحوظة ؛ وذلك دليل على أنها كانت تقاسى بين جنبيها صراعاً شديداً ؛ وأخيراً تسلم والدها رسالة رقيقة من مسيو هيجير يقنعه فيها بضرورة إرسال ابنته الكبرى ، لتدريس اللغة الإنجليزية ، ومعاونة زوجه فى المعهد . وقضت هذه الرسالة على كل حيرة وقلق ، فجمعت حوائجها ، وشدت رحالها ثانية إلى بروكسل ، وكتبت فيما بعد إلى إلين خطابا تقول فيه :

« . . . عدت إلى بروكسل ضد ضميرى ، مدفوعة بشعور خيل إلىّ

إذ ذاك أنه لاسبيل إلى مقاومته ، فعاقبني الله على أنانيتي وجنوني بحرماني من السعادة ، والراحة الذهنية مدة تزيد على عامين . . . »

فأي معنى لهذا الكلام ؟ ولماذا تكون عودتها إلى بروكسل مخالفة لضميرها؟ وكيف قضى جنونها وأنانيتها على سعادتها الذهنية مدة طويلة ، في الواقع أن لهذا الخطاب أهمية تاريخية كبرى ، و بفضل الجمل التي أتينا على ذكرها استطاع المؤرخون بعد وفاتها بأعوام أن يهتدوا إلى سر كبير في حياتها أمكنها أن تخفيه عن العيون حقبة من الزمن .

ففي خلال الشهور الأخيرة لإقامتها الأولى في بروكسل ، اقترفت تشارلوت القوية الحازمة سخافة كبرى تتلخص في أنها أحبت مسيو هيجير زوج ناظرتها والذى شبهته فيما مضى بالقط الوحشي والضبع الثائر !! وأحست أن عودتها إلى معهده معناها مضاعفة حبها لرجل متزوج كاثوليكي ، مما قد يؤدى إلى نتائج خطيرة ، ولذلك ترددت كثيراً في العودة حتى جاءت رسالته ، وقضت على ترددها في الحال .

ولم يكن مسيو هيجير يعرف شيئاً عن هذا الحب أو يريده ، ولم تكن زوجه الطيبة تتصور يوما أن الفتاة الإنجليزية الباردة قد تشغف برجل متزوج أشيب الشعر ، ولذلك أرسلا الخطاب لدعوتها ، واستقبلاها عند حضورها في حفاوة وترحيب . ولم يقتصر كرمهما على ذلك بل تعداه ، إذ خصصا لها مكاناً طيباً ، ووضعا حجرة جلوسهما الخاصة تحت تصرفها . وطابت لها الحياة بينهما ، لأنها استطاعت أن تخفى حبها في حذر ، وامتلأت

خطاباتها بآيات الرضا والقنوع ، وهو شعور لم يسبق أن أظهرته تشارلوت فى أى فترة من فترات حياتها .

ولـكن حبها ازداد وطغى ، وبدأت عوارضه تتسلل إلى وجهها ، وكثر القيل والقال ، وتساءل الناس عن حقيقة الأسباب التى دفعتها إلى العودة إلى بروكسل ، فكتبت إلى إلين تقول :

« ... يبدو أن هناك بضعة أشخاص يعتقدون أن فى أوربة زوج المستقبل للآنسة تشارلوت .... فلا يستطيع هؤلاء أن يصدقوا أننى عبرت البحر فقط ، من أجل أن أعود إلى مدرسة مدام هيجير ... »

وخليق بهذا اللغط أن يكبح جماحها بعض الشيء ، ولـكن تشارلوت فى الواقع كانت قد فقدت السيطرة على نفسها ، وإهمال الحبيب أذكى نيران الحب فى قلبها ، وغدا الأمر واضحاً للعيان ، ورأته مدام هيجير ، كما رآه زوجها الـكاثوليكى التقى ، فغضب ونقم ، وبدأت متاعب الفتاة تتوالى منذ ذلك العهد ؛ فقد تنـكر الزوجان لها ، وعاملاها بمنتهى البرود والتحفظ ، وأحست أن الكل يتجسس عليها ، وأن الأنظار ترقب كل حركة من حركاتها ، وأن الأسماع تنصت إلى كل كلمة من كلماتهـا ، فارتبك أمرها ، واسودت أيامها . وانقضت الشهور وهى تقاسى ألوان الشقاء. ومع ذلك تصر على البقاء ، ولا تفـكر فى العودة إلى بيتها .

وتغيرت نغمات خطاباتها ، وامتلأت الصفحات بالنقمة على مدام هيجير ؛ فهى امرأة حقيرة لا أخلاق لها ، تتجسس على كل فرد ، وتمقت العـالم

أجمع ما عدا نفسها ، ولا يهمها من أمر من يشتغلون معها شيء اللهم إلا إنجاز أكبر كمية من العمل . أما القط المتوحش والضبع الثائر فقد غدا أرق الناس خلقاً ، وأشدهم عطفاً ، وأحقهم باحترامها ، لأنه الوحيد الذى يزيل عنها ضيقها و بؤسها .

وكلما ازدادت قسوة هيجير عليها ، ازدادت تعلقاً به ، وحباً له ، ولم تحتمل هذا الجهد النفسانى ، فانهارت صحتها ، واسودت أيامها ، وتملكها حزن قاتل خلف على وجهها آثاراً ظاهرة . وقام ضميرها ينهاها عن هذا الحب الخطير وأنكرت عقيدتها الشغف برجل متزوج لا يريدها ؛ ومع ذلك أبى قلبها أن يصغى لهتافات العقيدة والضمير . وفاضت بها الآلام فنفرت من الناس، وراحت تتجول بين القبور ، لتفرغ فوقها دموعها وأحزانها ؛ و بلغ بها اليأس يوما أن ذهبت — وهى البروتستنيَّة المتطرفة — إلى الكنيسة الكاثوليكية وركعت أمام القس تعترف له !

وانقضى العام تقريباً ، وأقبل شهر ديسمبر ، وتشارلوت لا تجد الشجاعة للرحيل ، فقلقت أسرتها عليها ، وانتابت إميلى الهواجس ، فكتبت إلى إلين تقول :

« . . لم تشر بكلمة واحدة عن عودتها إلى البيت ... فإذا استطعت السفر إليها ، والبقاء معها نصف عام ، فربما أمكنك إحضارها معك عند العودة ، وإلا بقيت هناك إلى الأبد . . . »

وعند ما تعقدت الأمور ، وذاقت تشارلوت من كأس المذلة ألواناً ،

تحركت إرادتها الحديدية بعد غفوة طويلة ، فعقدت العزم على هجر بروكسل فجمعت حوائجها ، وشدت رحالها الى الوطن ، وعند الرحيل بكت وهى تودع هيجير بكاء حاراً ، ولكنها توعدت زوجته قائلة : « سأنتقم ! »

ووصلت إلى هاوارث فى اليوم الثانى من شهر يناير عام ١٨٤٤ ، فما إن وصلت حتى كتبت إلى الين تقول :

« ... قاسيت كثيراً عند مغادرتى بروكسل ، وأعتقد أننى لن أنسى ما حييت ما كلفنيه وداع مسيو هيجير . فقد أحزننى أن أؤلم من كان خير صديق طيب نزيه ... »

## ١٠

عند ما استقرت تشارلوت فى دارها ، وهبطت عليها الوحدة ، وشملها السكون ، قام قلبها يصرخ ، و يعذبها بسره الدفين الذى يجهله العالم أجمع ، ما عدا هيجير وزوجته ، فأقبلت على العمل ، عله يخلصها من أفكارها وأحزانها ؛ ووجدت فى مشروع المدرسة ما يشغلها ، فجمعت أشتات قوتها وشجاعتها ، وانهمكت فى التدبير والترتيب .

واختلفت الأحوال الآن عن الماضى كثيراً ؛ فالخالة قد أورثت كل واحدة من الفتيات ثلثمائة جنيه ، وهو مبلغ يزيد على نفقات المدرسة ، ومطالبها المتنوعة . ولم يعد عرض مس وولر يناسب الظروف الحاضرة ، بسبب الضعف الشديد الذى أصاب بصر مستر برونتى ، فاقتضى بقاء بناته على مقربة منه ؛ ولذلك قررت تشارلوت أن تكون المدرسة فى الأبراشية ، وقامت مسرعة بإعداد المكان اللائق لها .

وتمت الاستعدادات ، وطبعت النشرات ، وتقررت المصروفات ، ولم يبق شىء على الافتتاح غير التلميذات ؛ ولكن الأيام مضت متثاقلة ، وتبعتها الأسابيع فالشهور ، ولم تقبل طالبة واحدة على المكان ! وقامت

تشارلوت بدعاية ثانية واسعة ، وكتبت الخطابات إلى الأصدقاء ، فأجابها الكل بتمنيات طيبة ، ولكن لم يبعث أحدهم ببناته إليها . وبدأت أمانيها تنقبض شيئاً فشيئاً ، حتى تقلصت ثم تلاشت تماماً ، وبدت لها الحقيقة سافرة : فلقد ضيعت شبابها دون طائل ، وقاست ويلات العمل فى الأسرات وتغربت عن وطنها ، وأتعست أختيها وأشقتهما من غير فائدة ! وخرجت من التجربة الجديدة وقد ازدادت مرارة ، وحقداً على المجتمع الفارغ الذى لا يعرف قدر المواهب والنبوغ .

* * *

ولم يكن الفشل فى ميدان العمل هو كل ما يؤلم تشارلوت ، فقد كانت تعانى معه فشلا عاطفياً خطيراً . فحبها لمسيو هيجير ازداد بالبعد لوعة والتهاباً مما أورثها الحزن والسهاد ؛ وتحطمت كبرياؤها العظيمة ، وزايلها البرود والجمود ، فأقبلت على الورق والقلم ، وكتبت إلى من تحب خطابات حارة ، مليئة بالذلة والخضوع ، تستجدى فيها حبه وعطفه . قالت فى واحد منها :

« . . . . أعلم جيداً أن دورى فى الكتابة إليك لم يحن ، فلقد سبق أن أرسلت إليك خطاباً كتبته بقليل من الحكمة ، لأن العذاب كان يملأ قلبى ولكنى لن أفعل شيئاً من هذا القبيل مرة أخرى ، ولن أكون أنانية ؛ إن خطاباتك أعظم نعمة فى الحياة ، وسأبقى فى انتظارها صابرة . . . . »

وأصم مسيو هيجير أذنيه عن هتافاتها ، ولم يرسل شيئاً مما تعتبره أعظم

نعمة فى حياتها ، فتملكها اليأس ، وراحت تهدد فى رقة بالعودة إلى بروكسل ، وكتبت إليه :

« . . . أقول مرة أخرى وداعاً يا سيدى . . . ويؤلمنى أن أودعك ، حتى فى خطاب . من المؤكد أننى سأراك ثانية ، بل يجب أن أراك ، وسأعود إلى بروكسل يوم أقتصد من المال ما يكفى للسفر ، وسأراك ثانية ولو دقيقة واحدة . . . »

ومضت الأسابيع والشهور ولم تصلها كلمة منه ، فخيل إليها أن القسوة لا يمكن أن تبلغ به الى هذا الحد ، وعزت صمته إلى أساليب زوجته ، واتهمتها بإخفاء خطاباتها عنه ، ولذلك انتهزت فرصة سفر صديقتها مارى تيلور وشقيقها إلى بروكسل ، وحملتهما خطاباً ثالثاً إليه ، ورجتهما تسليمه يداً ليد . وعاد مستر تيلور ، ومن بعده عادت شقيقته ، ولم يحمل أحدهما إجابة لها ، فكتبت إلى مسيو هيجير تقول :

« . . . . عاد مستر تيلور ، وسألته أيحمل منك رداً لى ، فأجاب « لا شيء » . قلت لنفسى صبراً ، فستعود شقيقته عما قريب ، وجاءت مس تيلور ، وقالت « لست أحمل لك شيئاً من مسيو هيجير ، لا كلمة ولا خطاباً » إننى لا أجد الراحة أو السلوى ليل نهار ، واذا نمت أزعجتنى أحلام أراك فيها دائماً جامداً مقطباً غاضباً ، وأسمعك تقول : « إننى لا أحفل بك مثقال ذرة يا آنسة تشارلوت ، فلست من أفراد أسرتى الآن ، ولقد نسيتك تماماً ! » إذا كان ما سمعته فى الحلم حقيقة واضحة ، فلماذا لا تقول ذلك فى صراحة ؟

أعرف أنها ستكون صدمة شديدة إن فعلت ، ولكن أثرها سيكون أخف وطأة من الشك وعدم اليقين . . . . »

ومرت شهور ، وانقضى ما يقرب من عامين ، ولم تصلها كلمة واحدة رداً على خطاباتها الملتهبة ، فلم يهزم قلبها ، ولم تبرد عاطفتها ، وكتبت إليه فى أواخر عام ١٨٤٦ تقول :

« . . . . أنتظر خطاباتك يوماً بعد يوم ، وكل يوم تهبط علىّ صدمة شديدة ، تغمرنى بأحزان مبرحة ، ويتنازعنى شبح خطك الجميل ، فتنتابنى الحمى ، وأفقد شهوة الطعام ، ويهجرنى النوم ، وأذبل . . . »

والحقيقة أن مسيو هيجير كان يتسلم خطابات تشارلوت ، ويمزقها فى صمت ، ويلقى بها إلى سلة المهملات ، فتدخل زوجته بعد انصرافه ، وتجمع قطع الورق ، وترتبها معاً ، ثم تحتفظ بها بعد أن تلصقها على ورقة . وظلت الخطابات الأربعة فى حوزتها سنوات طويلة ، وبفضلها استطاع المؤرخون أن يفسروا سبب عودة تشارلوت إلى بروكسل ضد ضميرها ، ولماذا عاقبها الله على أنانيتها سنوات .

وأسدل الستار مؤقتاً على المأساة العاطفية ، التى خرجت تشارلوت منها مجهدة محطمة ، ولكن هذه المأساة بالذات منحتها مادة غزيرة عند ما زاولت التأليف فيما بعد ، فى كتابها الثالث « ڤيلت » : وصفت حبها الطاغى لأستاذها ، وانتقمت من زوجته بأن كالت لها الإهانات بغير حساب . وقرأ العالم الأوربىّ أجمع هذا الكتاب الخالد العظيم ، فاحتقر مدام هيجير

واستنزل على رأسها اللعنات ، فحققت تشارلوت بذلك وعيدها القديم عند ما قالت « سأنتقم » !

ولكن مدام هيجير ردت الانتقام مثلا بمثل . فبعد وفاة تشارلوت بسنوات ، أخرجت الرسائل من مخبئها ، وسمحت للمؤرخين والكتاب بقراءتها ، لتكشف للناس عن سر حفيظة تشارلوت ، ودافعها الحقيقى للسباب . وأحدثت الرسائل ضجة كبيرة ، ورفعت الستار عن أثمن ما حرصت تشارلوت على إخفائه طوال حياتها ، فنجحت بذلك فى اثارة اللغط حول اسمها وسمعتها .

***

وكانت فترات الضيق والغضب هى أخطر عهود تشارلوت : ففى غمرة أحزانها تصب جام نقمتها على المجتمع ومن يعيشون فيه ، وتتضاعف فيها القدرة على كشف أخطاء الناس ورذائلهم ، وتنشط ذاكرتها ، وتسجل مثل عدسة مصورة ، دقائق شخصية من تختارهم ليكونوا منبع تلك الأخطاء والرذائل ، وتخفى هذه الصور فى حرص ، حتى تواتيها الفرصة للتشهير والتمثيل بهم .

والفترة التى تلت خيبتها فى حب مسيو هيجير ، وخيبتها فى افتتاح مدرسة خاصة ، مثل صادق لعهودها الخطيرة ، فقد تملكها الحزن والضيق والسأم ، فكتبت تقول :

« سأبلغ الثلاثين بعد قليل ، ولم أفعل شيئاً مجديا حتى الآن ، وتنتابنى

فى بعض الأحيان كآبة أحس بظلها يخيم على حاضرى ومستقبلى ؛ ولـكن من الخطأ أن أتذمر ، فالواجب يحتم علىّ البقاء فى البيت فى الوقت الحاضر .. ولقد كانت هاوارث فيما مضى مكانا جميلاً حبيباً إلى نفسى ، ولكنها ليست كذلك الآن ، وأشعر أننا قد قبرنا جميعاً هنا ، ولذلك أتوق إلى حياة نشيطة كلها عمل وترحال . . . »

ولم يكن الترحال أو العمل ميسوراً ، فوجهت نشاطها إلى القساوسة الذين يساعدون مستر برونتى فى كنيسته ؛ وجعلت ترقبهم بعينها القاسية الناقدة . فوجدت أنهم لا يستحقون فى نظرها تقديراً أو إكباراً ، ولذلك أمطرتهم وابلا من الاحتقار والمهانة ، نال منها مستر نيكولز — الذى تزوجها فيما بعد — نصيب الأسد ! وكتبت عنه إلى إلين تقول :

« لا أستطيع أبداً أن أجد فى هذا الرجل أى عنصر طيب ، كالذى عرفته أنت فيه ، فغباوته وضيق تفكيره يستوقفان نظرى قبل كل شىء . »

وفى خطاب آخر تقول عنه :

« .... إنه كغيره من القساوسة غبى ثقيل الظل ، لا يبعث وجوده تسلية فى النفوس .... »

وعند ما سافر فى عطلة إلى إرلندا ، قالت :

« ... تمنى كثير من الناس ألا يتعب نفسه بالعودة ثانية ، وما هذا بالشعور الذى يجب أن يربط بين راع ورعيته .... »

وكانت تشارلوت قاسية فى حكمها على القساوسة ، ولـكنها تمسكت

بهذا الحكم سنوات عدة؛ وعند ما ألفت كتابها الثانى «شيرلى» خصصت لهم جزءاً كبيراً منه ، صبت فيه جام غضبها عليهم وازدرائها لهم ، ووصفتهم وصفاً دقيقاً ، فعرفهم الناس ، وعرفوا هم أنفسهم؛ ولكنهم لم يغضبوا منها ، أو يحقدوا عليها ، وظلوا على علاقة طيبة بها، مما أخجلها، وأورثها الندم.

وأراد الله أن يرحم القساوسة من شرها مؤقتاً ، بأحداث جديدة شغلت ذهنها ، وأبعدته عن التفكير فيهم : ففى شهر يونيه عام ١٨٤٥ تركت آن عملها فى بيت روبنسون العجوز ، وعادت مع أختها إلى الأبراشية ، لقضاء العطلة مع الأسرة . وبعد بضعة أيام من عودتهما تسلم برانويل خطاباً من مخدومه يفصله فيه من العمل ، ويهدده بالفضيحة إذا حاول الاتصال بأى فرد من أفراد بيته . وكان الخطاب صدمة شديدة لبرانويل ، ولم يتقبله فى هدوء ، وثار ثورة جنونية ، واستسلم للبكاء والعويل حتى أصيب بنوبة عصبية حادة ، تركته مريضاً ضعيفاً .

ولم يكن من المعقول أن حرمان الفتى من عمله الزهيد يسبب كل هذه الثورة وذلك الجنون ، وتساءلت الأسرة عن حقيقة الأسباب التى دعت روبنسون العجوز إلى هـذا التصرف ، فتطوع برانويل بذكر قصة عجيبة محزنة : فقد أحب زوج مخدومه الجميلة ، وبادلته الحب والعطف ، فلما علم الرجل بما بين أم أولاده ومربيهم ، طرده تلك الطردة الشنيعة ، وهدده بالفضيحة إن عاود الاتصال بها . وأعلن برانويل أنه جد شغوف بهذه

المرأة ، ولا يستطيع البعد عنها ، وما دام الزوج قد فرق بينهما فلا راحة إلا فى الانتحار .

ووجدت تشارلوت فى الحادث الجديد ما ضاعف كراهيتها لأخيها ، وحقدها عليه ، وأحست أن حياته سلسلة أخطاء ، لا يمكن أن تغتفر ؛ واستعرضت أمام ذهنها تاريخه الحافل . فقد بدأ الحياة صبياً جميلا موهوبا ، وبرزت مواهبه الفذة العظيمة ، فاغترت بها ، وغالت فى تقديره ومحبته . وعلى مر الزمن لم تأت المواهب بالنتيجة التى كانت تتوقعها ، وبدل أن يصبح قائداً سياسياً ، أو كاتباً عبقرياً ، قنع بوظيفة كاتب صغير فى محطة فرعية ، فذهب حبها هباء ، وضاعت السنوات فى تقديس معبود لا يستحق العبادة أو التقديس ! وكشفت لها الأيام المزيد من خيبته ، إذ فشل فى كل عمل صغير قام به ، وجلب كثيراً من الفضائح التى أساءت إلى اسم برونتى كل الإساءة .

وانقلب حبها لصديقها وحليفها القديم حقداً مريراً ينبعث من قرارة قلبها ، وازداد هذا الحقد تأججاً بما أبداه من ضعف أمام محنته القلبية الجديدة . ولو كانت تشارلوت — التى تقاسى الآن عذاب غرام يائس — على شىء من الإنسانية والحس ، لعطفت وأشفقت على أخيها ؛ ولكنها بدل أن تشفق وتعطف ، وازنت بينه وبين نفسها فلقد أحبت وفشلت ، مثلما أحب وفشل ، ومازالت تذوب شوقا الى زوج امرأة أخرى ، كما يذوب هو شوقا إلى امرأة رجل آخر ، غير أنها لم تبك ، أو تفضح سرها ، أو تهدد

بالانتحار ، بل طوت سرها بين جنبيها ، وحرصت على إخفائه عن العيون . حقيقة أنها كانت تكتب الى حبيبها رسائل ذليلة تستعطفه فيها ، وتستجديه فتاتاً من مائدته العامرة ، ولكنها رسائل خاصة لايعرفها غير صاحبها فقط . وخرجت تشارلوت من تلك الموازنة القاسية بنتيجة حازمة تقول : « ان برانويل ضعيف محروم من الرجولة ، وهى لا تعترف بالضعفاء فى الحياة ! »

ولم تكن تشارلوت عادلة فى هذا الحكم ، فالأقدار وحدها هى التى ساعدتها على الظهور بمظهر القوة والجبروت ! و بفضل نبل أخلاق مدام هيجير استطاعت أن تتمتع طيلة حياتها بتقدير الناس واحترامهم . فلو أن السيدة البلجيكية بعد أن أحيت الرسائل من سلة المهملات بعثت بها إلى مستر برونتى ، أونشرتها أيام مجد تشارلوت وشهرتها ، لتحطمت كبرياؤها المزيفة ، وانهارت قوتها المصطنعة ، وظهرت للعالم أجمع على حقيقتها ، وعرف الناس أنها أقل قوة من برانويل ، وأشد جنوناً وعبثاً !

ولكن تشارلوت كانت تغفر لنفسها دائماً ، وتلتمس لأعمالها معاذير وأسباباً ، ثم تنكر الغفران على الآخرين ، ولا تقر معاذيرهم وأسبابهم ؛ فغالت فى احتقارها لبرانويل ؛ وقسوتها عليه ، وقاطعته كل المقاطعة ، ولم تبادله كلمة بعد ذلك حتى مات واختفى عن نظرها إلى الأبد . وامتلأت رسائلها إلى أصدقائها بعد حكمها الجائر عليه بآيات إذلاله واحتقاره، وكتبت إلى إلين تقول :

« . . . لقد تداعت أمالى فى برانويل.وأخشى أنه لم يعد أهلا لأى

عمل كان ، فرذائله تبدو متأصلة فى نفسه ، ونقائصه أعمق كثيراً مما كنت أظن ، والصدمة الأخيرة التى تلقاها جعلته مستهتراً ، ولا يحد من جنونه غير حاجته الشديدة إلى النقود . . . » .

وفى خطاب آخر تقول :

« . . . لا يبذل برانويل أى جهد فى سبيل البحث عن عمل ، وما دام فى البيت فلن أدعو أحداً للحضور ، ومشاركتنا فى بلوانا . . . » .

وفى رسالة ثالثة تقول :

« . . . كلما ازددت معرفة به إزددت حزماً فى قرارى . وددت لو أمكننى أن أقول كلمة طيبة واحدة عنه ، ولكن لا أستطيع ، ولذلك أفضل الصمت . . . » .

# ١١

وقفت إميلى ترقب الأحداث الجديدة صامتة هادئة ، فما هى بالمرأة التى تشهر مشاعرها ، وإحساساتها لأحد ، أو تمكن إنساناً ممن يعيشون حولها أن يجد طريقاً إلى قلبها ، وما يعتمل فيه . وكان هدوء إميلى باطنياً فى ناحية ظاهرياً فى ناحية أخرى : ففشل مشروع المدرسة لم يحزنها — كما أحزن تشارلوت — بل ملأ قلبها رضا واطمئناناً ، فما رغبت يوماً فى مدرسة ولا أرادت التدريس مهنة لها ، ولذلك رحبت كثيراً بأن انتهى الأمر بلا شيء .

ولكن إميلى كانت حزينة غاضبة إذا ذكرت برانويل وأحداثه : فهى ما تزال تحب أخاها حباً شديداً طاغياً ، وتجد فى حالته الراهنة ما يوجب العطف والإشفاق ، فهو ملك ضل طريقه ، فحق على عبّاده القدماء أن يأخذوا بيده فى محنته ، ليعودوا به إلى سواء السبيل . وشغلت أحزان برانويل قلبها ، وملأت فراغ نفسها المحرومة ، فحنت عليه ، وأشفقت على ما أصابه من تعس وشقاء . ورأت أن تشارلوت حليفته القديمة قد تخلت اليوم عنه ، وقلبت له ظهر المجن ، وعذبته بقطيعتها ، وآلمته باحتقارها ، وحطمت

كبرياءه بمختلف أنواع المهانة والإذلال ؛ فثارت على أختها القاسية وازدادت كراهية لها ، ونفوراً منها ، و بعداً عنها . ونضج فى مخيلتها ربيبها الأسود «هيثكليف» بطل (مرتفعات وذرنج) ، وعاش هو الآخر صامتاً ، و إن امتلأ قلبه بالبغض والكراهية ، وجعل يترقب الفرصة للانتقام من أعدائه انتقاماً يحطمهم حتى لا تقوم لهم قائمة ، و يترك فى نفوسهم أثراً لا يزول . ووقفت إميلى صامتة كربيبها هيثكليف تنتظر فى حذر لتنزل الضربة القاضية فوق رأس من لا تحب .

و بين جدران الحجرة الصغيرة تعتكف إميلى كل مساء ، وتقرض الشعر سراً ، لتخفف من أحزانها و بلواها ؛ وفاضت قصائدها فى ذلك العهد بعاطفة عجيبة جياشة ، فهى تنتظر روحاً يهبط عليها فى هدوء الليل وظلامه، ليملأ فراغ حياتها ، ولذلك توقد مصباحاً صغيراً ، وتضعه كل ليلة فى نافذتها، ليعرف الروح أنها على استعداد وفى انتظار :

« احترق إذاً أيها المصباح الصغير ، ودع الضوء يلمع فى وضوح . »

« صه ! اسمع رفرفة أجنحة ، أظنها تحرك الهواء ؛ »

« أن من طال انتظاره قد أتانى .

« أيتها القوة الغامضة ، إننى أثق بقدرتك ، فثقى بإخلاصى »

وزادت الإحساسات الجديدة أميلى بعداً عن الجميع ماعدا آن ، وعاشت بين جدران الأبراشية كأنها غريبة عنهم ، لا يعنيها أمر أحد ، ولا يعنى بأمرها أحد .

وخرجت يوما للنزهة فى البرارى ، فقابلها كلب مريض يلهث تعباً ، وقد تدلى لسانه من فمه ، فأخذتها الشفقة عليه ، واقتربت منه لتخفف عنه فاندفع نحوها فى جنون ، وعقرها فى ذراعها بوحشية . وتملكها الرعب ، وخشيت أن يكون كلِباً ، فينتقل الداء اليها ، ومع ذلك لم تنطق بكلمة ما ولم تحدث أحدا بما جرى ، وعادت إلى البيت فى سكون ، ودخلت الى المطبخ ، وتناولت المكواة الحامية من النار ، ووضعتها على الجرح لتطهيره ، واحتملت آلام الكىّ فى صمت وشجاعة ، وعادت إلى مزاولة أعمالها المنزلية وكأن شيئاً لم يحدث ؛ ولم تعرف الأسرة بهذا الحادث إلا بعد زمن طويل.

وكما أورثها الزمن شدة على نفسها زادها أيضاً قوة وجبروتاً ، فكان يكفى أن يلتمع الغضب فى عينيها ، لينكمش الكل أمامها ، و يفقدوا القدرة على النطق فى حضرتها . ومن الحوادث الشهيرة ما حدث بينها و بين كلبها المتوحش « كيپر » : فقد اعتاد هذا الحيوان أن يتسلل إلى الحجرات ، وينام فوق أسرة العائلة ، ولم يجرء أحد على تأديبه ، إذ بلغت به الوحشية أن يهجم فجأة على من يؤنبه ، وينشب أنيابه فى عنقه ؛ ولم ترضَ إميلى بهذا الحال ، فأعلنت أنها ستعاقبه عقاباً صارماً إذا عاود فعلته مرة أخرى . وفى ذات مساء دخلت تابى حجرة النوم ، فوجدت كيپر على الفراش ، فخرجت تحمل الخبر الى سيدتها وهى تجلس بين أختيها ؛ فاسود وجه إميلى غضباً ، وتقلص فمها ، وتطاير الشرر من عينيها ، فارجفت قلوبهن جميعاً ، وارتعدت فرائصهن ، لأنهن يعرفن ما تستطيع أن تصنعه إميلى فى مثل

هذه الحالات ، ومع ذلك لم تجرؤ واحدة منهن على التدخل أو الكلام . وصعدت إميلى فى السلم ساكنة ، وعادت بعد قليل وهى تجر الـكلب من طوقه ، وارتفعت زمجرته الوحشية . فملأت أرجاء المكان ؛ وعندما وصلت به الى الردهة ، جابهته فى وحشية تفوق وحشيته ، وانهالت بيديها عليه ضربا ، حتى تورم وجهه ودمت عيناه . وأخذ الحيوان بالمفاجأة ، وهزمته قوتها الجارفة ، فانكمش أمامها ، وعوى ألما وخذلانا ، ورقد فى ركن الردهة تسيل من جروحه الدماء ، وقد أوشك على فقد البصر . وعندما انفثأ غضبها ، عادت اليه مرة أخرى ، وحملته بين ذراعيها إلى حجرتها ، وظلت طوال الليل ساهرة ، تعالج جروحه العدة بيديها ، وتضع الضمادات النظيفة على رأسه وعينيه ؛ ولم يحمل لها الـكلب حقداً بعد ذلك ، بل تضاعف حبه وولاؤه لها ، وظل على إخلاصه إلى النهاية ، ولما ماتت كان أول من تبع نعشها ، وعندما ووري جسدها فى التراب ، عاد ليبكيها أياماً أمام حجرتها الخالية .

* * *

فى أواخر عام ١٨٤٥ وقع حادث جديد غير اتجاه حياة بنات برونتى الثلاث، و إن قضى على البقية الباقية من علاقة الأختين: فقد لحظت تشارلوت أن اميلى تكتب كثيراً وتحرص على سرية ما تكتبه ؛ فتملكها حب الاستطلاع ، وقررت أن تقتحم عزلة اختها ، وتكشف عن سرهـا قوة واقتداراً ، وانتهزت فرصة خلو الحجرة يوماً ، فقامت إلى المائدة الصغيرة

وبحثت فى درج اختها الخاص ، وأخرجت أوراقها السرية ، وانكبت على قراءتها جوار الموقد · وخفق قلبها ، وتقطعت أنفاسها ، فقد كانت الاوراق مليئة بقصائد رائعة بليغة ، تتفجر العاطفة من كل بيت وكل كلمة فيها ، ولم يكن الشعر من النوع الذى اعتادت تشارلوت أن تقرضه ، أو تقرأه لغيرها من النساء ، بل كان شيئاً جديدا عجيبا ، فيه قوة جارفة وفلسفة عميقة ، وروح حائم حزين .

وبينما هى غارقة فى القراءة إذا بأميلى تعود الى الحجرة ، وتراها على هذا الحال ، فيثور غضبها ثورة شديدة ، وتنهال على أختها تأنيباً ، لسلبها أوراقها ، واغتصابها أسرار قلبها ، واحاديث نفسها . قالت تشارلوت فى مقدمة ديوان اميلى الذى طبع بعد وفاتها .

« . . . وانقضت ساعات طوال قبل أن أتمكن من إزالة غضبها من جراء وقوفى على مكنون سرها ، كما انقضت أيام عدة حتى استطعت أن اقنعها بضرورة نشر مثل هـذه القصائد . كنت أعرف أن ذهناً كذهنها لايمكن أن يخلو من شعلة من المواهب النبيلة ، ولذلك رفضت أن أيأس من إذكاء لهيب هذه الشعلة . . . . »

ودب النشاط فى تشارلوت من جديد ، واشتعلت نيران آمالها الأدبية مرة اخرى ، وعاودتها الرغبة فى أن تبنى وأختاها مستقبـلا أدبياً أنيقا ، فجمعت القصائد التى كتبتها فى سن الصبا ، وتبرعت آن بتقديم قصائد نظمتها هى الأخرى سراً ، وانتقت من بينها مجموعـة لـكل منهن ،

واختارت أسماء مستعارة لها ولأختيها فاصبحت تشارلوت « كورر بل » ، واميلى « إليس بل » وآن « آ كتون بل » ، وكلها أسماء رجال كما نرى ، لأنها كانت تعتقد أن القراء والنقاد لا يرحبون جديا بثمرات ذهن امرأة .

وكانت الصعوبة الأولى هى إيجاد طابع وناشر للكتاب ، فطاف المؤلف — عن طريق البريد — بمختلف دور الطباعة والنشر ، إلى أن استقر أخيراً لدى أيلوت وجونز اللذين قبلا المهمة على شريطة أن يدفع المؤلفون الثلاثة نفقات الطبع ، وقبل كورر بل ، بالنيابة عن أخويه هذا الشرط ، وظهر الكتاب فعلا فى شهر مايو عام ١٨٤٦ .

وبمجرد ظهور الكتاب أرسلت تشارلوت نسخاً منه هدية للجرائد والمجلات الأدبية وجلست بعد ذلك هادئة فى انتظار ثورة الإعجاب المتوقعة ولكن الجمهور لم يضج إعجابا ، ولم يتحدث النقاد بكلمة عنه ، و بيعت منه نسختان فقط ! وعندما بدأت الآمال تنحط ثانية ؛ ظهرت مقالة فى مجلة « الأثنيوم » تنقد شعر الأخوة الثلاثة ، ونالت قصائد « أليس بل » ( أميلى ) كل المديح والإطراء ، وقال الناقد إن لهذا الشاعر روحاً عجيباً رقيقاً ، وأجنحة قوية سيحلق بفضلها عن قريب إلى سماء الشهرة والمجد ، أما بقية الأشعار فليس فيها قوة أو جمال .

وكتبت تشارلوت بعد ذلك تقول :

. . . طبع الكتاب ، ومع ذلك لا يعرف أمره غير القليل ، وكل ما يستحق الشهرة فيه قصائد إليس بل . . . »

* * *

كشفت قصائد إميلى الجميلة ، وما لاقته من مديح و إطراء ، لتشارلوت عن حقيقة ذهن أختها ومواهبها ، وعرفت أن وراء القشرة الجامدة ، نبوغاً وعبقرية ستسموان بصاحبتها عن قريب إلى سماء الشهرة والمجد كما قال الناقد ؛ ولم تكن قد عرفت ذلك ، أو تنبهت إليه من قبل ، فحبها لبرانويل أثناء الطفولة والصبا ، شغلها عن تأمل أختها ، أو الإحساس بوجودها . ومتاعبها النفسية فى سن الشباب باعدت بين الأثنتين ؛ وتشارلوت كما نعلم أمة أسيرة للشهرة والنبوغ ، ولذلك سجدت فى الحال أمام أختها ، وأحرقت بخور الولاء والاحترام عند قدميها ، وامتلأ قلبها بحب جارف لها ؛ وأراد الله أن يأخذ هذا الحب طريق العذاب والآلام ، فلم تكن إميلى على استعداد لقبوله الآن ، ولذلك أبت أن تمد يدها لأختها القاسية الأنانية ، ونفرت من عطفها ، وطوحت بقلبها بعيداً . وتحرك بين جنبيها ربيبها هيثكليف ، فقد واتته الفرصة للانتقام ، وحان الوقت لأن يرد العدوان لأصحابه ، ويكيل لهم من المذلة أشكالا وألواناً ؛ ولكن سلاح هيثكليف غير سلاح أميلى ، فقد حارب البطل الأسود أعداءه بالمال ، أما هى فستحارب وتنتقم بسلاح أقوى وأشد ، وستتخذ من الحب الفجائى الذى طغى على قلب تشارلوت ، فجعلها طوع إشارتها ، وسيلة لتعذيبها و إذلالها .

* * *

حرصت تشارلوت كل الحرص على إخفاء حقيقة كورر و إليس وآ كتون بل

ولم يعلم أحد قط أن فتيات الأبراشية الثلاثة قرضن شعراً ، أو طبعن كتابا ؛ وظل مستر برونتى معتكفاً بين كنيسته وحجرته ، وقد جهل تماما المحاولة الأدبية التى قامت بها بناته ، وتوالت رسائل تشارلوت على صديقتها إلين ناسى وامتلأت بكثير من سباب برانويل ، ولم تحو كلمة واحدة عن الكتاب !

واقتنعت الأخت الكبرى أن القريض لن يرفعهن إلى الشهرة التى تتوق إليها ، فقررت أن يجربن حظهن فى النثر ، وصارحت أختيها بفكرتها وأمرتهما أن تسرعا بالإنكباب على كتابة القصة . وبدأت هى فى الحال قصة (الأستاذ) وإختلت إميلى بنفسها تكتب (مرتفعات وذرنج) ، بينما إنهمكت آن فى ( أجنس جراى ) ، ولكن واحدة من الثلاث لم تكن تعرف ما تكتبه أختاها أو تستشيرهما فى شىء .

واقتصرت الكتابة والتأليف على المساء ، لأن الأعمال المنزلية كانت تستغرق اليوم كله ، وعندما يهدأ البيت ، ويشمله السكون ؛ ويأوى مستر برونتى إلى فراشه ، وينصرف برانويل إلى حانة الثور الأسود وتغط تابى فى نومها ، إذ ذاك تهرع الفتيات الثلاث إلى أوراقهن وتغلق إميلى عل نفسها حجرة النوم ، وتنكب آن على مائدة الطعام ، وتجلس تشارلوت جوار الموقد فى البهو . « وعند منتصف الليل يفتح الباب ، ويدخل برانويل مترنحا ، وتتعثر قدماه فى الممر الطويل ، ويتقدم من تشارلوت ؛ ويجلس بجوارها أمام النيران ، ولكنها لا تبادله كلمة واحدة ولا ترفع رأسها نحوه ، بل تبتعد فى اشمئزاز ، وتسعل مرات عدة كأن رائحة الخمر المنبعثة من فمه تكاد تخنقها ،

وقد يحب أن يسألها عما تكتب ، ولكنه يسكت خشية أن تجيبه بكلمة جارحة ، ويشعر أن وجوده غير مرغوب فيه ، فيترك الحجرة على عجل ، ويصعد إلى إميلى ويطرق بابها برفق ، ويدخل إليها ليتحادثا بضع كلمات» ويجد فى أخته الرقيقة العطف الذى ينشده ، وتحدثه عن قصتها ، وتستشيره فى مجرى حوادثها ، فتزايله آثار قسوة تشارلوت ، ويحس مرة أخرى أنه مخلوق بشرى ، فيذهب إلى فراشه هادىء النفس .

وفى ربيع عام ١٨٤٦ إنتهت الفتيات الثلاث من قصصهن ، وكتبت تشارلوت باسمها المستعار تعرض على الناشر مؤلفات الأخوة الثلاثة ، و بعثت إليه بالأصول ، فرحب بطبع مرتفعات وذرنج ، وأجنس جراى ، ولكنه رفض « الأستاذ » لأن القصة لم تعجبه !

وطبع كتابا إميلى وآن فى مجلد واحد ، وخرجا إلى السوق ولم يسترعيا نظر أحد من النقاد أو القراء ؛ وفى نوفمبر عام ١٨٤٦ ظهرت مقالة فى مجلة « النورث أمريكان » تنقد مرتفعات وذرنج وتقول إن مؤلفها إليس بل « رجل نادر المواهب ، ولكنه عنيد متوحش حزين » ! وبعد هذا المقال بسنتين تنبه العالم الأدبى فجأة إلى عظمة هذه القصة ، وقوتها وجمالها ، فهلل لها النقاد وكبروا . ورفعوها إلى مستوى القصص الخالدة ؛ ولكن إميلى كانت قد ماتت إذ ذاك ، فلم تتمتع بشىء من هذا المجد ، وتلك الشهرة .

# ١٢

مرتفعات وذرنج قصر كبير منيف يقف وحده بين البرارى الواسعة الممتده ، ويقوم فوق رابية عالية تجعله هدفاً لضربات الرياح القاسية . وفى يوم من أيام الشتاء وقف مستر لوكوود أمام الدار الكبيرة ، يطرق الباب طلباً للحماية من العواصف والرياح ، فيفتح له خادم عجيب الأطوار ، ويدخله بعد مقابلة خشنة ، إلى أسرة لا تقل عن الخادم عجباً وخشونة . وتتساقط الثلوج فتحول دون عودة لوكوود إلى منزله ، ويضطر إلى قضاء الليل بين أناس لا يرغبون فيه ، ويمنحونه حجرة صغيرة ضيقة لينام فيها ، فيرى على جدران الحجرة كلمة ( كاترين ) وقد نقشت مرات عدة ، وفى كل مرة يتبع الاسم لقب مختلف ، فتاره كاترين إيرنشو ، وتارة أخرى كاترين لنتون ، ومرة ثالثة كاترين هيثكليف . وينام لوكوود أخيراً ، فيرى حلماً مفزعاً ، يستيقظ منه مرتاعاً ، ليسمع خارج النافذة نقراً كأن شخصاً يحاول عبثاً الدخول ، ويرى خلف الزجاج وجه فتاة صغيرة ، وتصل إلى أذنيه كلمات تقول :

— أدخلني . . . أدخلني . . . لقد مضى عشرون عاماً ، وأنا طريدة لا بيت لى . . .

ويثير الحلم فزع الغريب ، وتحرك الرؤيا حبه للاستطلاع ، فيعود فى الصباح إلى بيته ، ويستفسر عن تاريخ مرتفعات وذرنج من الخادم (نلى دين) التى ولدت وترعرت فى هذا المكان ؛ فتقص عليه أسطورة حب وحشى جنونى ، انتهى بهلاك صاحبه ودماره : فمنذ عشرين عاماً كانت كاترين الصغيرة تعيش فى القصر الكبير مع شقيقها هندلى ، ووالدها الصارم ايرنشو. وعندما بلغت الفتاة السادسة من عمرها ، عاد الوالد يوماً من سفره ، وقد حمل معه صبياً أسود الشعر ممزق الثياب ، لا تعرف له أسرة ولا وطن ، وبعد فترة قصيرة تنشأ بين كاترين وهذا الصبى هيثكليف صداقة حارة قوية ، تزيد على مر الأيام ، فتصبح رابطة بين الطفلين لا تنفصم عراها . ويعطف السيد ايرنشو على ربيبه ، ويميزه عن ابنه هندلى ؛ ولكن هيثكليف لا يعترف بجميل ، ولا يرد عطف السيد بما يستحقه ، ويعيش فى الأسرة ، ليستنفد كل محبة ، ويستغل كل فرصة ، دون أن يدفع ما يقابل ذلك .

وتمر السنوات ، ويذهب هندلى إلى المدرسة ، ويموت ايرنشو العجوز ، فيعود الوريث من دراسته ، وقد جاءت معه زوجة جميلة الشكل فارغة العقل . وتدول دولة هيثكليف ، وينزل به هندلى أنواع المذلة والمهانة ، لينتقم منه على المحبة والرعاية التى تمتع بهما دونه خلال حياة والده ، ويحتمل هيثكليف الذلة والهوان ، وهو الفتى القوى المتكبر ، من أجل كاترين الجميلة

التى خلبت لبه على مر الزمن ، وملكت ناصية قلبه الأسود الحقود .

وفى خلال نزهة من النزهات الكثيرة التى يقوم بها الصديقان ، يصلان فى سيرهما إلى بيت آل لنتون الأثرياء ، فيتسلل الإثنان إلى الحديقة ، لينظرا من خلال نافذة مفتوحة ، ويتفرجا على أطفال الأسرة وهم يلعبون . وينطلق كلب كبير ، ويعقر ذراع كاترين المتطفلة ، ويقبل أهل البيت على صراخها ، فيحملون الفتاة إلى الداخل ، ويطردون هيثكليف ، ليعود وحيداً تحت الثلوج المتساقطة .

ويسجل هذا الحادث بداية اهتمام كاترين بجيرانها الأغنياء ، ويزيد تقديرهم فى نفسها ، ويقوم صراع شديد فى قلبها بين حبها الطاغى لهيثكليف وإعجابها الشديد بإدجار لنتون الأنيق ؛ وينتصر الإعجاب على الحب ، فتشجع إدجار على حبها ، وتعده بالزواج .

وتشتد بها الحيرة بعد هذا الموعد ، ويزداد فكرها بلبلة ، فتذهب إلى الخادم نلى دين — أختها فى الرضاع — لتحدثها بالأمر ، تسألها النصح والإرشاد ، وتفسر دافعها لهذا الزواج : فهى لا تحب إدجار لنتون ، ولكنها تريد أن تتزوج منه ، لتملك ناصية ثروته ومركزه الاجتماعى ، من أجل مصلحتها ومصلحة هيثكليف ، أليست هى وهيثكليف شخصاً واحداً ؟ إنها تحس أنهما روح واحد قسم بين جسدين ، وتقول فى حديثها :

— إنه نفسى وأكثر . ومهما كانت المادة التى صنعت منها روحانا ، فهى مادة واحدة .

وما دامت روحهما واحدة ، فآلامهما أيضاً واحدة :

— إن آلامى العظيمة فى هذا العالم كانت أبداً آلام هيثكليف .

ومع ذلك فهى لا تستطيع الزواج منه ، لأنه لقيط لا أسرة له ولا وطن، ولقد عاش فى البيت كخادم ، فإن اقترنت به بعد ذلك سيلطخها الزواج بالعار !

ويسمع هيثكليف هذا الحديث ، فتتحطم كبرياؤه ، وينصرف فى سكون ، ويهجر المقاطعة ، ويختفى فى الظلام الذى خرج منه ؛ وعندما تعلم بذهابه ، تثور غاضبة ، وتبكى فى جنون ، وينتابها اليأس ، فتسقط فريسة مرض شديد ، تخرج منه وقد تغيرت أخلاقها تماماً ، وتبتعد عن الناس ، وتقضى الأيام فى تعذيب من حولها ، ولا تخضع لغير رغباتها الخاصة ، وعندما تملى عليها هذه الرغبات ان تتزوج من إدجار لنتون ، تربط حياتها بحياته بلا إبطاء .

وبعد سنوات ثلاث من الزواج يظهر هيثكليف فجأة ، ويعود إلى المكان غنياً موسراً أنيقاً ، أما من أين أتى بهذا المال ، فلا يعرف أحد ، ويظل السر خافياً إلى نهاية القصة . ويهبط البطل الأسود كما يهبط البلاء الكريه لتصفية حسابه القديم مع هندلى إيرنشو الذى جرعه فيما مضى كؤوس الذل والمهانة ، ثم ينتحر بعد ذلك ويضع حداً لحياته وشروره . وتجن كاترين فرحاً بقدومه ، وتتلقاه بحماسة لا نهاية لها ، وتظل ترقبه طيلة الوقت بعيون متلهفة ، كأنها استعادت بعودته ما فقدته من روحها القاسية . ويقلب استقبالها مشروعاته رأساً على عقب ، فيترك فكرة الانتحار ويعيش

بعد ذلك ليجعل العالم ملك يديه ، وليقضى فى قسوة على كل من أساء له من أسرتى إيرنشو ولنتون .

وتحس كاترين أن الشيطان ركبها مرة أخرى ، فتسعى إلى تحريك زوجها وإثارته ، لعله يصارع هيثكليف وينتصر عليه ، فيكسب قلبها مرة أخرى ؛ ولم يكن إدجار من النوع الخشن الذى ترغب فيه ، فيدير ظهره لها ، ويأبى أن يقف مع هيثكليف فى كفتى ميزان ؛ ويتملكها اليأس ، فتحاول الانتحار ، وتفتح النافذة ، وتعرض صدرها للموت الذى تحمله رياح البرارى فى الشتاء ، فتمرض وتموت بعد أن تنجب ابنة لإدجار ، وتقابل الموت فرحة وتذهب إلى القبر لتنتظر قدوم بطلها الأسود فى يوم من الأيام ، لينام القلبان جنباً إلى جنب ، سواء فى الجنة أو فى الجحيم .

ويقضى هيثكليف — خلال مرضها — الليالى تحت نافذة حجرتها ويبكيها بدمع هتون ، ويتسقط أخبار صحتها من الخدم ، فلما ينفذ السهم ويعلم بالنهاية ، يثور غضباً على خيانتها التى دفعتها إلى هجره والزواج من إدجار لنتون ، فيلعنها لما سببت له من أحزان ، ويدعو السماء أن تعذب روحها فى الجحيم ، كما تعذب طوال حياته . ويكرر صلاة واحدة لا تتغير :

— إننى أصلى صلاة واحـدة ، سأعيدها حتى يجف لسانى : كاترين إيرنشو فلتحرمى من الراحة ما دمت حياً .. كونى معى دائماً فى أية صورة.. قودينى إلى الجنون إن شئت .

وتتحقق لعنة هيثكليف ، وتظل روح كاترين هائمة ، ويتنازع شبحها

مرتفعات وذرنج ، وتهيم على وجهها طريدة ، وهى تطرق النوافذ وتقول :

— دعنى أدخل . . . دعنى أدخل . . . لقد مضت عشرون عاماً وأنا طريدة . . . عشرون عاماً طوالاً .

وعلى مر الأعوام يتم انتقام هيثكليف ، ويبطش بأعدائه وكارهيه ، وينزل الخراب والنكبات على كل من يحمل ذرة من دم لينتون أو إيرنشو، وعند ما يتحقق له النصر التام يجد أن العالم تراب زائف ، وأن الحياة فارغة لايستطيع شىء أن ينعشها أو يملأها ، فيذبل ويذوى ، ويموت راضياً ليرقد جوار من أحب ، بعد أن يوصى ويقول :

— لا أريد قساً يحضر ، ولا صلاة تقام على ، فلقد كدت أحصل على جنتى ، أما جنة الآخرين فلا قيمة لها عندى ولا رغبة لى فيها .

ويدفن هيثكليف كما أوصى جوار روحه الثانية دون صلوات أوطقوس ، وبموته تنقشع الغيوم ، فيسعد الشباب الذين عذبهم ، وتتزوج ابنة كاترين من ابن هندلى إيرنشو .

***

وقصة مرتفعات وذرنج خشنة ، تسودها من البداية إلى النهاية روح رهيب شرير ، ولكن هذا الروح نفسه هو الذى يملك لب القارىء ، ويستحوذ على قلبه ، وينتزع منه الإعجاب انتزاعاً . ولقد سمت إميلى برونتى فى وصف وتحليل شخصية هيثكليف إلى أعظم درجات السمو لأنها كانت تصف شيئاً مألوفاً لها تصف ربيباً رعته بين جنبيها سنوات طوال ، وغذته بالآلام التى تذوقتها خلال وحدتها النفسية ، فغضباته وثورانه هى غضباتها

وثوراتها ؛ وانتقامه الرهيب هو الانتقام الذى كانت تتمنى لو تمكنها منه الأقدار ؛ وسنرى فيما بعد أن إميلى انتقمت أيضاً ثم ماتت بعدأن تم انتقامها وإن اختلف سلاحها عن سلاح ربيبها هيثكليف . والقسوة والخشونة والشر التى تسود القصة هى سر عظمتها وجمالها ، ورمز عبقرية مؤلفتها ؛ ولكن تشارلوت رأت هذا الجمال عيباً ، وفى مقدمة الطبعة الثانية لمرتفعات وذرنج — وهى الطبعة التى ظهرت بعد وفاة إميلى بقليل — كتبت تشارلوت تعتذر عن هذا العيب للقراء ، وتتساءل أمن الصواب أن يبيح المؤلف لنفسه خلق شخصية كريهة مثل هيثكليف ؟ وقالت عن تلك الشخصية التى تعتبر تحفة نادرة فى عالم الأدب ، ومثلاً أعلى للحب الوحشى الفطرى .

— « . . . وأسوأ ما فيه أن روحه الخبيثة تبدو وكأنها نفثت سمومها خلال الكتاب ، فتحتل كل مرعى وكل وادٍ ، وتطل من بين أغصان كل شجرة فى المرتفعات ... »

وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . إن لإليس بل ذهناً فريداً ، يمتلىء على هدوئه بالقوة الغامضة ، وعند ما ينظم شعراً تنساب روحه فى لغة بليغة مختصرة ، أما فى النثر فتبدو تلك الروح فى مناظر تخيف القارىء وتصدمه أكثر مما تجذبه . سيتحسن إليس حتماً لأنه يعرف أخطاءه . . . »

وعند ما ضج العالم بعد ذلك إعجاباً وتقديراً ، عرفت أن ما اعتذرت عنه ، كان فى الواقع منبع العظمة وسر الجمال .

## ١٣

لم تكن تشارلوت بطبعها ممن تقعدهن الهزيمة ؛ فلم يضطرب قلبها ، ولم تهن عزيمتها لرفض الناشرين كتابها «الأستاذ» ؛ وانكبت فى الحال تؤلف قصة جديدة بهمة ونشاط ، وتجرب حظها مرة أخرى ، و بعد شهور قلائل أتمت « چين إير » وأرسلتها إلى دار « سمث والدر » للنشر ، و يقال أن مستر وليامز — الناقد الأدبى للدار — عند ما قرأ الصفحات الأولى بهت ودهش لجمالها وعظمتها ، فظل طيلة الليل ساهراً على الأوراق ، ولم يتركها حتى انتهى منها فى الصباح ! وتم الاتفاق سريعاً عن طريق البريد ، وأرسلت المسودات إلى السيد كورر بل فى هاوارث ، فأصلحها وأعادها إلى الناشر بعد وقت قصير .

وفى اليوم السادس عشر من شهر أكتوبر عام ١٨٤٧ ظهر كتاب « چين اير » فأحدث ظهوره ضجة عظيمة فى الأوساط الأدبية ، ونفذت الطبعة الأولى بعد ستة أسابيع ؛ وهتف الجمهور يطلب المزيد ، فطبع الكتاب مرة ثانية قبل مرور شهر واحد . وتساءل الناس عن حقيقة « كورر بل » الذى استطاع بقفزة واحدة أن يتزعم أدباء العصر ، و يضع اسمه بين المخلدين

فى عالم الأدب الانجليزى ؛ ولـكن التساؤل لم يجدهم شيئاً ، و بقيت الحقيقة خافية ، وحرصت تشارلوت على إبقاء شخصيتها فى طى الـكتمان .

***

و « چين إير » طفلة فقيرة يتيمة تعيش فى بيت خال ثرى ، ويشاء القدر أن يموت الخال ، ويتركها فريسة لقسوة زوجته وأولاده ، وتتفانى مسز ريد فى قسوتها ووحشيتها ، وتصب على رأس چين الصغيرة جام حقدها ونقمتها ، وتحرمها اللذات التى يتمتع بها أولادها ، فتعيش فى البيت طريدة شريدة ، لتسمع كل صباح ومساء ما يذكرها بفقرها وحاجتهـا ؛ وتضيق مسز ريد باليتيمة ذرعا ، فترسلها إلى ملجأ « لوود » لتتعلم فيه .

ولم تـكن الحياة فى لوود أطيب منها لدى مسز ريد ، فالبنات يعشن فى قحط دائم ، والطعام الذى يصرف للتلميذة لا يفى بحاجة طفل صغير ، والطاهية تسرق الخيرات ، وتلقى لهن بالفتات ؛ وفى كل صباح تفوح من المطبخ رائحة اللحم المتعفن ، وتملأ أرجاء المدرسة ، فترغب الفتيات عن الأكل ، ويقضين اليوم جياعا .

وتتعرف چين إير فى المدرسة على طالبة أخرى اسمها هيلين بيرنز ، فتربط بين الاثنتين أواصر الصداقة . وهيلين فتاة وديعة هادئة تتقبل الحياة التى تعيش فيها بفلسفة عميقة رائعة ، ولذلك تحتمل صابرة ما تنزله بهـا مس سكاتشارد — إحدى مدرسات الملجأ — من ألوان المذلة والمهانة ، وتنحط

صحتها تدريجاً ، وتقضى حمى التيفوس المنتشرة بين الطالبات على ما تبقى من هيكلها العليل ، فتموت بين ذراعى صديقتها الصغيرة جين اير .

وتتم جين دراستها بنجاح ، فتعمل مدرسة فى الملجأ الذى تعلمت فيه ، وتنقطع صلتها تماما بمسز ريد ، وعلى مر الأعوام يتطرق إلى نفسها الملل ، وتشعر أنها حبيسة بين جدران عملها لا ترى شيئاً من الحياة المرحة الخارجة فتبحث عن وظيفة أخرى ، وتجدها فى مربية لدى ثرى انجليزى اسمه ادوارد روشستر ، فتنتقل إلى قصره المنيف ، لتعلم طفلته غير الشرعية « أديل » .

وجين اير قبيحة الشكل ، لها أنف كبير ، وجسم نحيل ، وفم مشوه الأسنان ؛ وهى تحس تماما بهذا القبح ، فطالما أسمعها الناس رأيهم فيه ، ومع ذلك نرى أنها توشك أن تحب مخدومها الثرى الأنيق ، فتعود على نفسها باللائمة ، وتقول :

— جين إير ... اصغ إلى الحكم عليك : ضعى فى الغد مرآة أمامك وارسمى عليها صورتك بأمانة دون أن تخفى شيئاً من عيوب وجهك . . . لا تتركى خطاً خشناً لا تحبيه ، ولا تغفلى تشويها لا يرضيك ؛ واكتبى تحتها « صورة مربية فقيرة قبيحة الشكل » .

ولم يردعها تحقـــيرها لنفسها ، ويزداد حبها على مر الأيام ، فتزجر قلبها قائلة :

— ليس لك ما تفعلينه مع سيد « ثورنفيلد » غير تسلم الراتب الذى يمنحك إياه أجراً على تعليم فتاته الصغيرة ، فلتحمدى الله على الاحترام

والكرم اللذين يعاملك بهما إذا أديت واجبك كاملا ؛ وثقي أن هذا هو الرباط الوحيد الذي يجمعك به ، فلا تسبغي عليه حبك وشغفك وآلامك وغيرتك ، لأنه ليس من مستواك ، وابقي في حدود طبقتك ، واحترمي نفسك ، ولا تمنحي قلبك وروحك من يحتقر منحتك ويأباها .

وروشستر رجل غامض ، أبقى على زوجته المجنونة ، وأسكنها حجرة في الطبقة الثالثة من بيته الريفي ، وتركها في رعاية خادم سكيرة ، وقد أخفى أمرها تماماً ، فلم يعرف أحد من أمرها شيئاً حتى جين إير .

ويعجب السيد بتربية ابنته ، ويشجعها على حبه ، ويتفق معها على الزواج ، على الرغم من ارتباطه بامرأة أخرى ، وعندما يقف معها أمام المذبح ، يتدخل شقيق المجنونة ، ويمنع الزواج . ولا يثني الفشل روشستر عن عزمه فيعرض على جين أن تكون خليلته ، ما دامت لا تستطيع أن تكون زوجته ولكنها تأبى في حزم ، وتهرب بعيداً عن موطن الإغراء ، وتهيم على وجهها في البلاد دون مال أو طعام ، وينتهي بها التجوال عند أسرة كريمة ، تكشف فيما بعد صلة قرابتها بها . وتعرف أنها ورثت ثروة طائلة عن عم غني بعد أن أوصى لها ؛ فتقتسم الثروة مع أولاد عمومتها هؤلاء جزاء لهم على إكرامهم لها وعطفهم عليها . ويعرض عليها ابن عمها جون ريفرز أن تتزوج منه ، وأن تسافر معه للتبشير في الهند ، وعندما توشك أن تقبل ، يخيل إليها أن صوتاً يناديها ، ولكن من أين أتى هذا الصوت ، تقول :

— لم يكن في الحجرة ، ولا في البيت ، ولا في الحديقة ؛ لم يأت من

الهواء ، أو من الأرض ، أو من السماء . لقد سمعته من قبل ، فأين ومتى ؟...
كان صوت رجل عرفته وأحببته ، صوت مازلت أذكره تماماً ، صوت
أدوارد روشستر ، وكان ينادى فى ألم شديد وحزن وحشى ، بل فى
إصرار و إلحاح .

وتعود چين مسرعة إلى الحبيب الذى يناديها ، وعندما تصل إلى ثورنفيلد
تعلم أن زوجته المجنونة قد أشعلت النيران فى القصر ، وألقت بنفسها من
فوق السطح فماتت ، وحاول روشستر أن ينقذها ، فعجز بعد أن ذهب
اللهيب بعينيه وحطم جدار متساقط ذراعه ؛ وتتزوج چين إير من حبيبها
الضرير ، وتعيش قانعة إلى جواره .

* * *

وتعتبر قصة « جين إير » وصفاً دقيقاً للفترة الأولى من حياة تشارلوت ،
فملجأ لوود هو صورة صادقة لمدرسة روهيد بما حوته من فظائع ورذائل ،
وهيلين بيرنز هى أختها ماريا التى قاست الكثير ، وماتت ضحية الوحشية فيها ؛
والحياة فى بيت روشستر ، وماتلاقيه المربية من إهمال ومايعاملها الزائرون به
من احتقار ، كلها تجارب خاصة مرت عليها خلال عملها فى الأسرات .
ويقول بعض المؤرخين أن تشارلوت برونتى وصفت خالتها فى صورة مسز
ريد القاسية التى كانت تجلد الفتاة اليتيمة فى حجرتها الرهيبة .

وموضوع القصة — كما نرى — عجيب ، لعب الخيال فيه دوراً كبيراً ،
فامتلأ بمختلف المستحيلات ، ومع ذلك فعظمة الكتاب تسمو على

الترهات ، وحرارة العاطفة تأكل بنارها الأخطاء والمبالغات ؛ فلقد بلغت الذروة فى وصف إحساسات المرأة نحو الرجل ، ورسمت تلك الإحساسات فى صراحة وصدق ونقاء ، لم يعرف فى تاريخ الأدب الإنجليزى من قبل .

وكان العهد الفيكتورى الأول لايعرف هـذه الصراحة أو يستسيغها ، ويتمسك بأهداب التقاليد الأخلاقية فى الكتابة ، ويفضل أن يظهر قلب المرأة فى صورة محتشمة ، ولو كان هذا القلب لايعرف الاحتشام ! فوضعت تشارلوت بكتابها أسساً جديدة فى الفن القصصى و بهرت القراء والنقاد بهذا اللون الصريح الجديد ، فأقبلوا على تصفحه بشغف ، ومع ذلك انتقدوه فى الصحف انتقاداً لاذعاً مريراً ، واتهموا « كورر بل » بالخشونة والثورة على التقاليد الموضوعة . ولم يكن هدف تشارلوت — فى الواقع — ثورة كالتى زعموها ، وكل مافى الأمر أنها تجاهلت تقاليد لاتحبها ولا تقرها ، وسردت قصة امرأة فقيرة تعرف ما هوالحب ، وماهى أحزان القلب وآلامه ، ووضعت تلك الأمور كما تحس وتشعر بها ، فأخرجت إلى العالم درة خالدة فى تاريخ الأدب الإنجليزى .

ولم تتقبل تشارلوت — كعهدها — النقد فى هدوء وترحاب ، بل ثارت غاضبة ، ونقمت على نقادها ، وكرهتهم طيلة حياتها ، وشهرت بهم ، واقتبست جملا من مقالاتهم ، ووضعتها على ألسنة أبطال قصتها التالية « شيرلى » إمعاناً فى تحقيرهم والحط من شأنهم . وكتبت تقول عنهم فى خطاب إلى مدرستها القديمة مس وولر :

« . . . عرفت الآن أنهم أفراد تطغى الحيوانية فيهم على العقل . . . أشخاص خشنون بطبعهم ، شهوانيون فى ميولهم . . . »

وكتبت إلى مستر وليامز ناقد دار النشر تقول :

« . . . لابد من مجهود عظيم لتحطيمى ، فأنا أعرف أولا نبل غرضى ، وأحمل فى قلبى احتراماً شديداً للدين . . . . وثانياً أجد فى حكم من شجعونى عضداً قوياً يشد أزرى . . . »

وعندما طبقت شهرة الكتاب آفاق انجلترا وأمريكا ، خضعت تشارلوت لمشورة أختيها ، وقررت أن تصارح والدها بأمر مؤلفها ، فدخلت إلى حجرته ودارت بينهما المحادثة التالية :

— والدى . . . لقد وضعت كتابا .

— أفعلت ذلك ، ياعزيزتى ؟

— نعم ، وأحب أن تقرأه .

— أخشى أن يجهد خطك الدقيق عينى .

— ولكنه مطبوع ، يا أبتاه .

— عزيزتى ! ألم تفكرى فى النفقات قبل الإقدام على عمل مثل هذا ؟ سيكسد الكتاب حتما ، ولن تستطيعى بيع شيء منه ، فالناس يجهلونك ، ولا أحد يعرف حتى اسمك .

— لن تكون هناك خسارة يا والدى ، وسيتغير رأيك إذا سمحت لى أن أقرأ عليك بعض النقد الذى ظهر فى الجرائد والمجلات .

وعند ما عرف الوالد حقيقة النجاح الذى سجله كتاب ابنته ، خرج من حجرة مكتبه ، وذهب إلى بناته وقال :

ـ أتعرفن يا بنات أن تشارلوت ألفت كتابا ، وإنه أفضل كثيرا مما كان ينتظر !

* * *

إن النجاح العظيم الذى أحرزته بنات برونتى ، شجع تشارلوت وآن على الاستمرار فى الكتابة ، فتعهدت الأولى أن تقدم لناشرها قصة جديدة ، كما وعدت الثانية ناشرها بمثل ذلك . وكان كلا الناشرين يعتقد أن الأخوة الثلاثة شخص واحد يكتب تحت أسماء مختلفة ، وبهذا العقيدة اتفق الإثنان مع دور النشر فى أمريكا على توريد المؤلفات الجديدة لصاحب « جين إير » ، ونتجت عن ذلك مشاكل عدة اضطرت معها تشارلوت أن تكشف لدار « إيلوت وچونز » عن حقيقة شخصية الكتاب الثلاثة .

ورفضت أميلى رفضاً باتا أن تزيح الستار عن نفسها ، وصممت أن تبقى بالنسبة للجميع فى طى الكتمان ؛ فسافرت تشارلوت وآن إلى لندن ، وتركاها خلفهما فى هاوارث . وعرف الناشر لدهشته أن الأخوة بل ثلاث فتيات ريفيات خجلات لم يسبق أن رأين لندن أو زرنها من قبل ، وفهم من حديث الإثنتين أن الأخت الثالثة فى الأبراشية تنتظر .

واحتفى مستر وليامز بمن طالت مكاتباته لها دون معرفة سابقة ، ومجد فى تشارلوت النبوغ والعبقرية ، فأقام حفلات عدة دعا إليها خيرة أدباء

العصر وشعرائه ، وقدمها إليهم باسم « مس براون » إجابة لرغبتها فى إبقاء شخصيتها خافية على الجميع .

وطاف الخبير الأدبى معهما فى أنحاء العاصمة ، وأراهما الأكاديمى الملكية والكنائس والمتاحف ؛ وذهبتا فى صحبته إلى الأوبرا بملابس قبيحة عتيقة الطراز لفتت أنظار الحاضرين ! و بعد بضعة أيام عادتا إلى هاوارث ، وقد انهكهما الجهد الذى لم تعرفاه من قبل .

وفى دار الأبراشية أدركت تشارلوت أنها قد أخطأت بالكشف عن شخصية أختها الثالثة ، إذ ثارت إميلى غضباً على اقتحام عزلتها مرة بعد مرة ، ولا شك أن غضبها كان شديداً بدليل أن تشارلوت كتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . دعنى أحذرك حتى لا تتكلم عن أختى عند ما تكتب إلىّ . . . « فإليس بل » لن يحتمل اشارة إليه إلا باسمه الكتابىّ ، ولقد اقترفت خطأ كبيراً بالكشف عن حقيقته لك وللمستر سمث ؛ وفى الواقع لم أكن أقصد ذلك ، وكلمة نحن « أخوات ثلاث » — التى ذكرتها فى حديثى معك خرجت عفواً من فمى دون أن أحس ، ولقد ندمت على نطقها إذ ذاك ، وما زلت نادمة إلى الآن ، لأننى وجدت أن غلطتى تتعارض وتتنافر مع كل رغبة أو شعور « لإليس بل . . . »

## ١٤

خلال هذا العهد المفعم بالآمال والأماني ، كانت مأساة أخرى تقع بين جدران بيت برونتي ، وتنمو على مر الأيام ، فتسجل بدء نهاية الكثيرين ؛ فقد ظل برانويل على عهده القديم يبكي حبيبته مسز روبنسون ، ويقرأ لأصدقائه خطاباتها الحارة ، ويغرق في الكأس والأفيون آلامه وأحزانه .

ولقصة روبنسون حديث آخر غير الذي ذكره برانويل ، وأكده في مناسبات كثيرة ؛ فقد كان الفتى شغوفاً بأدب كولوردج ودي كونسي ، وقرأ الكثير عن حياة الكاتبين ، فعرف أنهما أدمنا الخمر والأفيون خلال حياتهما الأدبية ، وأراد أن يتشبه بهما ، فأقبل على المنكرين بطيش حتى تمكنا منه ، فلم يستطع منهما خلاصاً .

وبتأثيرهما بدأت قواه العقلية تنذر بالخلل ، وخيل إليه أنه يحب زوج مخدومه التي تكبره بسبعة عشر عاماً ، وتصور أنها تبادله الحب ؛ ولما علم مستر روبنسون بأمر الخمر والأفيون ، وطرده من العمل شر طردة ، عزا برانويل ذلك إلى غيرة الزوج من علاقة الاثنين !

ولم يكن برانويل يفعل هذا عن انحطاط خلقي ، بل لأن المخدر بدأ

يهز عقله ، ويسرع به إلى الجنون ، فكتب بيده خطابات عدة ونسبها إلى حبيبته الموهومة ، وقرأها لأصدقائه ، ليثبت للجميع صدق روايته ، ويكشف لهم عن منبع أحزانه ومصائبه . وصدق الناس قصته ، وآمن آل برونتى بروايته ، فشجعه ذلك على التمادى والإمعان فى الخيال ، وتمكنت هذه القصة من عقله المختل ، وتصوّرها حقيقة واقعة .

وأخذت تشارلوت الأمر بظاهره ، ولم تحاول التغلغل فى نفس أخيها ، وكشف الحقيقة الواضحة ، والمأساة الكبيرة ، التى تختفى وراء الأكاذيب والترهات ، وزادت قطيعتها لمعبودها القديم ، وزادت خطاباتها عنه شدة وقسوة . كتبت عام ١٨٤٦ إلى مس وولر تقول عنه :

« . . . . لايفكر فى البحث عن عمل ، وأخشى أنه قد فسد فساداً لايصلح معه لشىء فى الحياة ؛ و إذا توفر المال لديه أنفقه فى السوء والإضرار ، فقدرته على التحكم فى نفسه قد أمست فى حيز العدم . . . »

وكتبت بعد ذلك بشهور إلى إلين ناسى تقول :

« . . . هو باق فى البيت ليعتصر كل مورد ، ويحول دون أية سعادة ممكنة . . . »

وأعماها الغضب والحقد عن حقيقة حالته الذهنية والجسدية : فقد بدأ الجنون يزيد وضوحاً فى تصرفاته ، كما نشط السل يفتك بحياته ، ونحل جسده ، ومزق السعال صدره ، وغارت عيناه ، وذهب جماله الرائع الفريد ، فلم يشفع كل ذلك لديها ، ولم يرقق قلبها مثقال ذرة . وأحس برانويل

بانقلاب صديقة الطفولة ، وحز فى قلبه إذلالها له الآن بعـد طول العبادة والتقديس .

وحدث ذات مرة أن مرضت طفلة يتيمة من رعايا الأبراشية ، وكان برانويل يعطف على هذه الطفلة ، فذهب لزيارتها ، ليخفف عنها قليلا ، وهى على فراش الموت ؛ وهنا تتمة القصة كما كتبها لصديقه مستر فيلبيس :

« . . . ذهبت لرؤية الصغيرة المسكينة ، وجلست معها بعض الوقت ، وقرأت لها شيئاً من الإنجيل ، وأنشدت أغنية طلبتها منى ، وشعرت برغبة شديدة فى الصلاة معها ، ولـكنى لم أستطع ، فـكيف أصلى من أجل روح أخرى ، وقد كدت أنسى الصلاة من أجل نفسى ؟ ! وعدت إلى البيت حزيناً من أجل الطفلة المسكينة التى تلفظ أنفاسها الأخـيرة ، وجلست وحدى واجماً متألماً ، ولاحظت تشارلوت حزنى واكتئابي ، وسألتنى عن السبب ، فلما أخبرتها به ، تأملتنى من الرأس إلى القدم كما لو كنت وحشاً ضارياً ، وتطلعت إلى بنظرة لن أنساها ماحييت ... لن أنساها ولو عشت مائة عام ، وجرحت تلك النظرة قلبى ، وآلمتنى كثيراً . فأحسست كما لو أن إنساناً سدد لـكمة شديدة إلى فمى . . ؟ »

وفى نهاية الخطاب يقول :

« وخرجت من البيت مسرعاً ، وذهبت إلى حانة الثور الأسود ، وسجلت هذا الحادث يائساً حزيناً ، لماذا لا يعطفون علىّ عندما يتحرك فى نفسى شعور طيب ؟؟! ! »

ورأت إميلى هذا الجحيم فثارت عليه ، وتفانت فى العطف على أخيها ، لتعوض عليه قسوة الآخرين ، وكرست حياتها لخدمته . وازدادت ثورة غضبها تأججاً عندما رأت أختها آن تكتب قصتها الجديدة « سكان وندفل هول » التى يدور موضوعها حول مدمنى الخمر والأفيون ، والتى يقوم برانويل فيها بدور البطل ، فتناقشت الأختان واختلفتا للمرة الأولى فى حياتهما ؛ و بذلت إميلى جهداً كبيراً فى منعها من الاستمرار ، وراحت تقنعها بأن قصة الأخ تستوجب العطف والإشفاق ، لا الكتابة والتشهير ؛ ولكن آن التقية أصمت أذنيها عن رجاء أختها ، وقررت أن تسجل الحوادث لتكون عظة وعبرة للجماهير ؛ فانقطعت الصلة بين الأختين تماماً ، ونبذتها إميلى كما نبذت تشارلوت من قبل ، ولم تبادلها كلمة حتى نهاية حياتها .

واستمرت الحياة بالأخ الوحيد ، وتعاظمت نكبته على مر الأسابيع ، ونبذه الصديق والحبيب ، إلا إميلى الوفية المخلصة ؛ تقول مدام (دا كلو) :

« ... كان هناك قلب امرأة واحدة ... قلب قوى فى حبه ، فاحتمل مصائب برانويل وخطاياه فى الحياة ، وثابر على مساعدته والعطف عليه ؛ وفى كل ليلة عند ما يذهب برونتى إلى فراشه ، وتعتكف تشارلوت فى الطبقة العليا ، تبقى إميلى ساهرة فى انتظاره ، ولا يوقظها من تأملاتها الحزينة غير خطواته المتعثرة ، وكلماته المتقطعة ، و يده المرتجفة على الباب ، فتنهض وتفتح لهذا الحطام البشرى ، وتقوده آمناً إلى فراشه ، ولم تفرغ شفقتها أبداً ، ولم

يتملكها الملل يوماً . وفى البيت الصامت كانت إميلى الصامتة فقط هى التى تخفف عن برانويل بكلمات رقيقة شفيقة ، وهى الوحيدة التى ظلت إلى النهاية تذكر أنه أخوها ، فلا تدفعها الذكرى إلى الخجل .. »

ويقال إن برانويل عاد ثملا إلى البيت كالعادة ، وألقى بنفسة على الفراش ، فسقط المصباح ، واشتعلت حوله النيران ؛ فهجمت إميلى على الحجرة ، وأنقذت أخاها ، وحملته بين ذراعيها إلى حجرتها ، ثم عادت بالماء وأطفأت النيران ؛ بينما وقفت تشارلوت وآن جانباً تنظران فى رعب واحتقار واشمئزاز .

وازدادت حالة برانويل الصحية انحطاطاً ، وفتك السل بصدره أبلغ الفتك ، ووضح جنونه للعيان ، ولكن كانت تنتابه فترات يستعيد فيها وعيه ، فيبكى على ما أصابه بدمع مدرار . وحان الوقت أخيراً لأن تتخلص تشارلوت من حملها الثقيل ، وفى اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر عام ١٨٤٨ أفل نجم برانويل ، وأشرف على الموت ، وتنبه فى اللحظة الأخيرة ؛ فنهض من فراشه ، وقرر أن يموت واقفاً على قدمية ، ما دام قد كبا فى ميدان الحياة ، وظل منتصب القامة مهيب الطلعة بادى الشجاعة حتى لفظ أنفاسه الأخيرة ، فسقط ميتاً على الأرض ؛ ودفن فى مقبرة الكنيسة جوار أمه وأختيه وهو فى الثلاثين من عمره فقط . ولم تحزن تشارلوت على وفاته ، وكتبت إلى صديقها مستر وليامز تقول :

« ... لقد دفنا ميتنا بعيداً عن الأنظار ، وعاد الهدوء بعد جلبة

الأسبوع الماضى ؛ وعلى كل حال فهو لم يدع لنا سبيلا إلى الحزن عليه ، كما اعتاد الناس أن يحزنوا على موتاهم . وانتقال أخينا الوحيد إلى قبره يعتبر نعمة أكثر منه نقمة ... »

وحدثته بتفاصيل دقائقه الأخيرة ، وكيف عقب على صلاة أبيه عليه بكلمة آمين ، وقالت :

« وكم بدت هذه الكلمة عجيبة ، وهى تخرج من بين شفتيه .... لن تتصور ذلك بالطبع ، لأنك لم تعرفه ! »

ثم فكرت أن تغفر له الآن ، وقد انجاب شبحه عن حياتها إلى الأبد ، فكتبت إلى إلين تقول :

« ... لقد ذهبت خطاياه الآن ، ونحن نذكر آلامه فقط ... »

ولكن إميلى حزنت كثيراً على برانويل ، وبكته طويلا بين جدران حجرة نومها الصغيرة ، وانكبت على أوراقها سراً تنعاه بقصيدة مؤثرة تعتبر من أجمل ما قرضته فى حياتها :

« ما أقل الآن من يبكيك »
« من القلوب الكثيرة التى أحبتك ؟ »
« ولماذا يثور الليلة قلبى ، »
« بمثل هذا الشعور الحزين ؟ »

« طالما جلست وحيدة أتأمل ، . »

« وأهيم بأفكار لا تراها العيون ، »
« فتعاودنى كلمة ، أو نغمة عابرة »
« من تاريخك الماضى العجيب . »

« وأراك أحياناً ناهضاً أمامى ، »
« صبياً موهوباً عظيماً من جديد ، »
« ومن عينيك تشع الفضائل ، »
« التى تتوج هام أشراف الرجال »

« شجاعة ، وصدق ، وصدر كريم »
« تنيره شمس نقية الضوء ؛ »
« شخص قُدِسَ وجوده وامتُدح ، »
« مثل يوم رائع فى صيف جميل . »

« انتشر شراعك فى الهواء جميلا ، »
« وبدأت رحلة المجد بكيرا ، »
« فكان صحواً نقيا طليقا ، »
« طليعة عاصفة ألقت حياتك بعيداً . »

« ولهف نفسي كيف وثق الربان ، »
« وبنى الآمال فوق زبد المحيط ، »
« وأسلم السفينة لتقودها الشهوات ، »
« وظنها ذاهبة إلى المرسى الأمين ؟ »

« فلقد كان يعرف حقا نذير الخطر ، »
« وتجمعّ الضباب يتبعه ظلام ، »
« وأى الصخور ، وأى الرمال ، وأى الحجر »
« يعوق الطريق لمرسى الوطن . »

« فضياء الشمس ، وصحو السماء ، »
« وجمال المحيط ، وصخب المياه ، »
« وقسوة الريح التي دفعته أماما ، »
« نذرٌ ما صح أن تذهب هباء »

« ووقفت على الشاطىء أرقب فى قلق ، »
« زبد الموج يزداد ابيضاضا ، »
« فبكيت حظك وحدى كثيراً ، »
« لعجزى تماما عن الإنقاذ . »

« وما جدوى الكلام ، وقد انتهى كل شىء ، »
« ومع ذلك قلبي يظل حزينا عليك ، »
« ولو أن الصديق والحبيب كليهما ، »
« قد نسياك ولم يبكياك . »

## ١٥

عقب وفاة برانويل نشطت آن وتشارلوت تكتبان مرة أخرى ، فانتهت الأولى من « سكان وندفل هول » ، التى يقوم فيها الأخ التعس بدور البطل الفاسد السكير؛ وطبعت القصة ، ولم تكن على شيء من الجمال الفنى أو العمق ، ومع ذلك نفذت الطبعة الأولى فى وقت قصير ، وتلتها طبعة ثانية قبل نهاية العام . أما تشارلوت فجعلت تبحث عن مادة لقصتها الثانية واستقر بها البحث على إميلى ، فانتوت أن تجعلها بطلة كتابها الجديد « شيرلى » ورأت أن تصف شخصيتها القوية الغامضة التى شغفت بحبها فجأة .

ولكن الأقدار كانت ترسم أموراً أخرى تهدد سعادة تشارلوت إلى الأبد ، وتنذر بمصاب جديد فى بيت برونتى ؛ فقد خرجت إميلى يوم دفن أخوها وراء نعشه إلى القبر . وكانت المرة الأخيرة التى غادرت فيها جدران الدار؛ إذ عادت ذلك اليوم مريضة تعبة إثر برد أصابها من الأمطار المتساقطة وانتابها سعال خشن حاد ازداد مع الأيام ، وقبل نهاية شهر أكتوبر أصبح من الواضح أنها تعانى السل كأخيها .

وتبينت إميلى حقيقة مرضها قبل الجميع ، ورأت النهاية المحتومة التى تنتظرها ، فلم تحزن ولم تيأس ، وسادت نفسها راحة عظيمة ، وقررت أن تتعجل الموت بكل وسيلة ، فقد واتت هيثكليف الفرصة للانتقام ، فانتهزها فى الحال ، وأعد العدة لضربة حازمة تترك فى نفوس أعدائه أثراً لا يزول .

واستسلمت المريضة للداء ، واشتد بها السعال ، ومع ذلك أبت أن تستشير طبيباً أو تتناول دواء ، وكلما سألتها تشارلوت عن صحتها نهرتها فى غضب وإذا تحدثت آن إليها ، تجاهلت حديثها كأنها لم تسمعه ؛ فقد أرادت أن تؤدب الأولى على طول قسوتها ، وتعاقب الثانية على قصة سكان وندفل هول .

ورأت تشارلوت أختها المفضلة تذوى وتذبل ، وتتقدم من القبر فى خطى سريعة ، وهى عاجزة عن انقاذها ، أو مد يد المساعدة اليها ، أو التخفيف عنها بكلمة رفيقة ، فثار حبها لإميلى ، وازداد وطغى وأصبح ناراً تحرق قلبها ، وتتعس حياتها ؛ فسعت جهدها أن تقترب منها ، وتزيل الجفوة التى تفرق بينهما ، فزادها السعى بعداً وافتراقاً ، فقنعت بالوقوف جانباً ، لترقب الحوادث باكية ، ولا تقوى على الاقتراب .

واحتملت إميلى آلامها البليغة فى قوة وجبروت ، وأبت أن تهزم أمام المرض ، وتمسكت بكل واجباتها المنزلية ، ولم تقعد عن واجب منها ، وقد كانت كلها ملقاة على كاهلها . وفى كل صباح تستيقظ مع الفجر ، لتقوم بكنس البيت ، وطهى الطعام ، وعجن الخبز ، فكتبت تشارلوت تقول :

« ... لم تتوان يوما عن القيام بواجب ينتظرها ، وما زالت كذلك إلى الآن ؛ ولـكنها تنهار سريعاً ، وتعجل الخطى نحو فراقنا . وكلما رأيت القوة التى تجابه بها آلامها ، تفتتت قلبي حزنا عليها ، وعجباً منها، وحباً لها . لم أر مثل هذا من قبل ، بل لم أر شبيها لها فى الحياة ، فهى أقوى من رجل ، وأبسط من طفل ، ولها طبيعة فريدة ، لا يشاركها أحد فيها . وأقسى ما فى الأمر أنها حين يمتلىء قلبها بالعطف على الآخرين ، لا تشفق على نفسها ، أو تترفق بها ؛ فالروح فيها لا تلين للجسد . و بيدها المرتجفة ، وقدميها المتخاذلين ، ووجهها الضامر ، تقوم بواجباتها فى اتقان كالذى عهدناه منها أيام الصحة الـكاملة . وأن أقف جانباً وأشهد كل هذا دون القدرة على الاحتجاج ، لهو ألم أشد من أن تصفه الـكلمات ... »

و يدل هذا الخطاب دون شك على أن انتقام هيثكليف قد بدأ يسجل نتائج باهرة ، وأن إميلى استطاعت أن تعذب الأخت التى طالما عذبت الآخرين ، وأن تضرم فى قلبها ناراً أشد مما عرفت طيلة حياتها ، حتى أيام حبها لمسيو هيجير . ووقف شبح برانويل ماثلا بين الأختين ، يمد احداهما بقوة ، فتزيد أحزان الأخرى وأتراحها ؛ ولم تكن تشارلوت تحمل ذرة من روح العطف على أخيها ، فأبت إميلى الآن أن تقبل شيئاً حرمه شقيقها المحبوب .

وأصرت إميلى أن تنام وحدها فى حجرة خاصة ، لتموت وحدها ؛ وفى كل صباح تنهض على قدميها المتخاذلتين ، وتهبط السلم متقطعة الأنفاس ،

لتقوم بجميع الواجبات المنزلية ، و بلغ بها الضعف على مر الأيام أن عجزت عن الهبوط إلا مستندة إلى جانب السلم ، وكل خطوة تخطوها تضطر بعدها إلى الوقوف دقائق ، فتردد الجدران حشرجة أنفاسها المتلاحقة ؛ وتقف تشارلوت باكية ، ترى وتسمع كل هذا ولا تجرؤ على النطق بكلمة واحدة . وعند ما تنتهى إميلى من الهبوط تذهب إلى المطبخ وتباشر عملها ، وتبقى حتى العاشرة مساء ، إذ تجر قدميها ثانية إلى الطبقة العليا ، وتدخل حجرتها وتضع مصباحا صغيراً فى نافذتها ، وتتأمل الثلوج المنتشرة فوق البرارى فى انتظار رفرفة أجنحة ملك الموت وهو يقترب .

وصارعت الأخت الكبرى كثيراً من أجل أن تحطم الجدار القوى الذى يفصل بينها و بين إميلى ، فلم تستطع ؛ وفى كل محاولة تردها المريضة بقسوة وخشونة ، ومن أجل ذلك أصبحت حياة تشارلوت جحيما ، وامتلأ قلبها آلاماً سودت حياتها ، وأظلمت أيامها ، فكتبت إلى أصدقائها تشكو ، قالت فى خطاب منها :

« . . . الله وحده يعلم ما ستنتهى إليه الأمور ، ولقد اضطررت أكثر من مرة إلى الاعتقاد أن موتها أصبح محتملا بل مؤكداً ، ولكن طبيعتى تنفر من هذه الأفكار ، فإميلى أقرب إنسان إلى قلبى فى الحياة . . . »

وفى رسالة أخرى تقول :

« . . . لو أن إميلى كانت فى صحة جيدة لما اهتممت بما يصيبنى من إهانة و إهمال . . . »

وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . إنها لاتقبل عطفا ، ولا تسعى إليه ، ومن يحاول إسداء معونة إليها يسبب ضيقها وغضبها . . . إن علاقة الأخوة غزيزة قوية ، وأعتقد أن قوة خاصة تنبعث من شخصيتها تزيدنى قربا منها وحبا لها ؛ ولكنها أنانية منى أن أشغلك بآلامنا العائلية ، فسامحنى ، ولا تشر إلى هذا الحديث بكلمة فى خطاباتك ، ولا تذكر اسم إميلى عندما تكتب إلىّ . . . »

وفى اليوم التاسع عشر من شهر ديسمبر عام ١٨٤٨ أى بعد ثلاثة أشهر من وفاة برانويل ، استيقظت إميلى فى الصباح كعادتها ، وارتدت ملابسها بعد جهد ، وجلست أمام الموقد تمشط شعرها ، وكان الجو بارداً جداً ، والجليد يتساقط فوق المنازل والحقول ، فازدادت قوتها انهياراً . وجسدها ضعفاً ، وسقط المشط من يدها فى النيران ، وعجزت عن الإنحناء للالتقاطه فتركته مكانه حتى دخلت تابى وأنقذته . وقبل أن تغادر إميلى حجرتها أطعمت كلبها ( كيبر ) وأطلقت صراح نسرها الحبيس ، ونزلت إلى الطبقة السفلى ، وجلست على مقعد مريح ، تحاول التطريز .

ولاحظت تشارلوت تغيراً واضحاً على وجهها ، فأحست أن نهاية أختها تقترب ، ولم تكن هناك فائدة من سؤالها أو التحدث إليها ، فقامت بمحاولة أخيرة لإظهار عطفها ومحبتها ، وخرجت إلى البرارى ، لتبحث عن زهرة برية نادرة ، مما تشغف به إميلى . ولم يكن الشتاء موسم تلك الزهور ، ومع ذلك جعلت تبحث فى كل ناحية ، لعلها تجد واحدة منها تختفى تحت

الصخور ، و بعد عناء عثرت على ضالتها المنشودة ، وعادت بها مسرعة إلى البيت ، ووضعتها فى سكون أمام أختها .

ونظرت المريضة إلى الزهرة ، ثم حولت وجهها إلى الناحية الأخرى ، ولم تنطق بكلمة شكر ، أو تحاول لمسها ؛ فقد فهمت فحوى ما تريد تشارلوت بهذه الزهرة ، ولكنها لم تشأ أن تتقبل رمز المحبة والصداقة . وطغى اليأس على وجه تشارلوت ، فانسحبت حزينة متخاذلة ، وجلست من بعيد ترقب علائم الموت ، وهى تزيد وضوحا وجلاء كل لحظة .

وفى الساعة الثانية اغبرّ وجه إميلى فجأة ، وأحست بالنهاية تحل ، فتراخت إرادتها الحديدية ، ورفعت عينيها نحو تشارلوت للمرة الأولى ، وقالت بأنفاس متقطعة :

— لو أتى الطبيب الآن ، أعتقد أننى سأقابله !

فأرسلوا فى استدعاء الطبيب ، ووقفت تشارلوت وآن تبكيان ، وترجوانها أن تقوم إلى الفراش ، وتحاولان مساعدتها على النهوض ، ولكنها نحت أيديهما فى غلظة ، وقالت :

— لا . . . لا . . .

وحاولت أن تقوم وحدها ، فتعثرت قدماها ، وسقطت على المقعد ميتة ، قبل أن يصل الطبيب ؛ وبذلك أسدل الستار على حياة حرة طليقة ، مليئة بالأحزان والآلام ، وبموتها اختفى إليس بل ، وخسر الأدب الإنجليزى شاعرة عبقرية ، وقصصية بارعة ، ستظل مؤلفاتها خالدة على مر الزمن .

ودفنت إميلى فى مقبرة الكنيسة جوار أخيها المحبوب ، وهى فى التاسعة والعشرين ، وسار خلفها كلبها كيبر ، وظل طيلة اليوم يئن لدى قبرها ، ثم عاد فى المساء ، وقبع أمام باب حجرتها أياماً ، يعوى و يأبى أن يتناول طعاماً أو شراباً .

وعند ما بحثت تشارلوت فى أوراق أختها الراحلة ، وجدت أنها قبل وفاتها بقليل نظمت قطعة شعرية ، تودع فيها الحياة ، وتقول فى مطلعها :

« ما الجبن من عيوب قلبى ؛ »

« فما أرتجف مرة لزوابع الحياة ؛ »

« أرى مجد السماء يضىء أمامى ، »

« ونور الإيمان يكلؤنى من الخوف . »

وتقول فى نهايتها :

« فالأرض تفنى ، والناس تموت ، »

« وتخبو الشموس ، ويقف الكون ، »

« وتبقى وحدك يا إلهى ، »

« يتمثل فيك البقاء . »

« لا حول للموت ، ولا قوة له ، »

« فهل يستطيع أن يفنى ذرة ؟ »

« لا ، فأنت يا إلهى الوجود ، وأنت الحياة ، »

« وما تكونه أنت لن يناله فناء . »

***

وكتبت تشارلوت إلى إلين تقول :

« . . . لم تعد إميلى تقاسى الآلام والضعف ، ولن ينالها منهما فى هذه الحياة مزيداً . فلقد ذهبت بعد صراع قاس قصير ، وماتت يوم الثلاثاء الذى خططت لك فيه رسالتى السابقة . كنت أظن وقت كتابتها أنها ستبقى معنا أسابيع أخرى ، ولكنها انتقلت إلى عالم الخلود بعد ذلك بساعات . . . »

وبالأمس وضعنا فى سكون جسدها النحيل الفانى تحت أرض الكنيسة . نحن الآن فى هدوء ولم لا نكون كذلك ؟ إن العذاب لرؤيتها تعانى الآلام قد انقضى ، ومشهد الموت قد ذهب ، والجنازة قد انتهت ؛ ونشعر أنها فى سلام ولا خوف عليها الآن من برد أو ريح شديدة ؛ فإميلى لا تحس بهما اليوم . ولقد ماتت فى وقت كان الكل يعلق عليها آماله ، وانتزعت من الحياة فى زهرة العمر ؛ ولكنها إرادة الله ، والمكان الذى ترقد فيه الآن خير من الذى تركته . . . . »

# ١٦

بعد أن دفنت إميلى ، واختفى شبحها من البيت نهائياً ، أقبلت تشارلوت على أوراقها مرة ثانية ، وعاودت الكتابة فى ( شيرلى ) ، وقد انقطعت عنها فى أثناء مرض أختها القصير ؛ وأفرطت فى عملها لعله ينسيها بعض أحزانها ، و يبعد ذهنها عن التفكير فى الحوادث الرهيبة الماضية ، وشاءت الأقدار أن تقفها عن الكتابة ، لترقب مأساة جديدة تتكرر فى البيت .

إذ لم يمض على وفاة إميلى وقت قصير حتى توعكت صحة آن ، ولما فحص الطبيب عن حالها ، أعلن أنها هى الأخرى قد أصيبت بالسل ، وأن المرض يلعب فى صدرها الآن دوراً خطيراً . ونزل الخبر كالصاعقة فوق رأس تشارلوت ، فقد كانت تأمل هدنة مع الأقدار ، فأبت عليها الدنيا هذه الهدنة ، وقدر عليها أن تعذب مرة بعد مرة وأن ترى عيناها أختيها المحبو بتين تتسللان بعيداً عن أنظارها . فكتبت فى اليوم الرابع والعشرين من شهر مارس عام ١٨٤٩ تقول :

« . . . إن حالة آن الصحية فى تأخر منتظم مستمر . . . . ولكن نفسها مستقرة وقلبها عامر بالمسيحية الحقة ، فليحمها الله ، و يساعدنا على احتمال

محنة هذا المرض المتباطىء المتلكىء ؛ وليساعدها فى ساعاتها الأخيرة عند ما يحين وقت الصراع الذى يفصل بين الروح والجسد . . . » .

ولكن المصاب الجديد لم ينسها إميلى ، وظل عقاب الميتة يلهبها بسياطه فكتبت إلى إلين تقول :

« . . . إن الشعور بفقدان إميلى لايخف على مر الزمن ، بل يزيد كل يوم حدة ، ويجلب معه آلاما لا توصف ، ثم إن المستقبل مظلم . » .

وفى خطاب آخر تقول :

« . . لايمكن أن أنسى يوم وفاة إميلى ، فهذا اليوم يزداد وضوحا وسواداً ، ويرتسم فى ذهنى أكثر من ذى قبل . كان يوما فظيعاً ، فيه انتزعت من حياة سعيدة وهى متنبهة مصارعة ، وإن كانت تعلم النهاية ؛ ولكن ماجدوى التفكير فى هذا الموضوع ؟ . . . » .

واختلفت آن عن إميلى فى مرضها كل الاختلاف ، فكانت هادئة وادعة ، تخضع للنصائح ، وتقابل الأطباء ، وتتقبل العطف ، وتعمل جاهدة على محاربة الداء ، والتغلب عليه ؛ ولكنها لاتخاف الموت أو ترهبه ، لأن تقواها الشديدة وأيمانها العظيم حمياها من الخوف والرهبة .

كتبت آن إلى إلين صديقة أختها تقول :

« . . . لست أخشى الموت ، وباستطاعتى أن أخضع لسلطانه ، متى تيقنت أنه لامفر منه ؛ وسأموت راضية لثقتى أنك ستمنحين تشارلوت كل رفقة وصحبة ممكنة ، وستكونين لها أختاً بدلا منى ؛ ولكنى أتمنى أن

يكتب الله لى الشفاء ، لا من اجل والدى وتشارلوت فقط ، بل أيضاً لأننى أتوق إلى عمل شيء طيب فى هـذه الحياة قبل أن أغادرها ، ففى ذهنى مشروعات عدة أريد تنفيذها فى المستقبل . . . مشروعات متواضعة محدودة ومع ذلك أحب ألا تذهب هباء ، فأكون قد عشت من أجل غرض صغير كالذى قمت به إلى الآن ، وعلى كل حال فإرادة الله ستنفذ حتما ... » .

وأبدت آن رغبة فى السفر إلى سكاربورو لعل هواء الشاطىء ينعشها ويقويها ، ومع أن حالتها الصحية كانت تنحط سريعا ، وارتسمت على وجهها آيات الموت القريب ، فان أختها لبت رغبتها ، وحجزت لها حجرة فى فندق هناك ، وسافرت معها فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مايو عام ١٨٤٩ .

و بعد أيام ثلاثة من وصول الأختين ، استيقظت آن فى الصباح كعادتها وارتدت ملابسها ، ومشطت شعرها ، و بعد قليل شعرت بانحطاط فجائى ، وأحست أنها أشرفت على النهاية ، فأرسلوا فى استدعاء الطبيب ، وعند ما حضر قابلته فى هدوء وسكون ، وسألته كم بقى لهـا على قيد الحياة ، وأصرت على معرفة الحقيقة ، لأنها لا تخشى الموت ؛ فلما أخبرها أن الموت قد حضر ، شكرته على صراحته ، و بقيت على مقعدها ساكنة واجمة ، ثم رفعت يديها مصلية ، وأوصت تشارلوت خيراً بوالدها ، وانتقلت إلى الفراش تنتظر النهاية . وفاض الحزن بأختها ، فانهمرت دموعها ، و بكت بحرارة ، ولـكن آن راجعتها فى ذلك ، وقالت :

— تشجعى يا تشارلوت ... تشجعى

وفى الساعة الثامنة مساء فاضت روحها فى سكون وهدوء ورضا . وماتت بسكاربورو ، وهى تبلغ الثامنة والعشرين من عمرها ، ودفنت فى مقبرة المدينة ؛ وبموتها اختفى نجم ثالث من سماء أسرة برونتى الموهوبة ، وانتهى أمر آكتون بل ، مؤلف « أجنس جراى» وسكان « وندفل هول » .

عادت تشارلوت من سكاربورو بعد أن تركت رفات أختها الأخيرة هناك ؛ وبين الجدران الحجرية افتقدت الوجوه الحلوة التى اعتادت أن تراها حولها . وبمجرد وصولها ، دخلت إلى والدها ، وحدثته باختصار عن تفاصيل المصاب ، ثم انسحبت إلى حجرتها وأغلقت عليها الباب . وبعد أيام كتبت إلى إلين تقول :

« . . . رأيت الحجرات خالية ، والسكون يملأ البيت ، فتذكرت أين يرقد الثلاثة الآن ، وفى أى جحر مظلم ينامون ، وعرفت أنهم قد اختفوا من حياتى إلى الأبد ، ولن يظهروا ثانية على الأرض ؛ فتملكنى شعور الوحدة والألم ، وعاودتنى الآلام التى لا مفر منها . والمحنة الكبرى تحل عند ما يهبط الظلام ، ويأتى الليل ، ففى مثل هذا الوقت اعتدنا أن نجتمع فى حجرة الطعام ، ونتحدث معاً ؛ أما الآن فأجلس وحيدة ، وأبقى صامتة . لا أستطيع أن أكف لحظة واحدة عن التفكير فى أيامهم الأخيرة وآلامهم العدة ، وماذا قالوا، وماذا فعلوا ، وكيف بدوا فى رقدتهم الخالدة . . »

واشتدت بها الأحزان على مر الوقت ، وتنازعتها أشباح الثلاثة ، فخالت

دون الراحة والهدوء ، وأصبحت دقات الساعة فى البهو الخالى توجع قلبها ، فتكاد لفرط اليأس تفقد عقلها . وانحطت صحتها ، وزادت هزالا ، وفارقها النوم ، ولازمها السهاد ، واختلت أمعاؤها ، فساء الهضم وعذبها ولم تعد الحياة تسير بالسهولة التى عرفتها ، فموت الأختين وخصوصا إميلى ، ألقى على عاتقها تبعات كثيرة لم تعهدها من قبل ؛ وأصبح عليها أن تقوم بمختلف الواجبات المنزلية كالكنس والغسل والعجن والطهى ، ولا تجد من يعاونها غير تابى العجوز ، ولكن تابى سقطت ذات يوم فأصيب رأسها ، فكان على تشارلوت أن تقوم بكل شىء . وعند ما علمت بما أصاب الخادم إنهارت إرادتها فجأة ، وبكت كالمجنونة دقائق عشر ، وإفادها البكاء ، وأزاح عن صدرها الكثير ، فنشطت للعمل ، وأنكرت على نفسها الضعف وقررت أن تثبت للحياة ، ولا تلين لمصائبها ، وتيقظت إرادتها الحديدية ، فكتبت تقول :

« ... لن أتحطم ، ولن أدع الأحداث تسلبنى المرونة والأمل والهدوء .. »

ووجدت تشارلوت أن خير وسيلة للخلاص هى الكتابة ، فأقبلت على ( شيرلى ) مرة أخرى ؛ وفى كل ليلة تأوى إلى حجرتها ، بعد الانتهاء من واجباتها المنزلية ، وتظل منكبة على الأوراق حتى مطلع الفجر ؛ وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . لقد استطاعت موهبة الخيال أن تنتشلنى من العذاب الذى كنت أقاسيه منذ ثلاثة أشهر ، وممارستها أنقذتنى من لجج الحياة ، وأبقت

رأسى فوق المياه إلى الآن ... وأحمد الله الذى منحنى هذه الموهبة ، وأعتقد أن أعظم واجب علىّ أن أستديم نعمة الخيال ، وأستفيد منها . . . »

وهكذا انتصرت تشارلوت على ضعفها ، وخرجت من المحنة الأخيرة أكثر قسوة ، وأعظم شدة مما كانت عليه ، ولم يعد ضعف الآخرين وأحزانهم يجد إلى قلبها سبيلا ؛ فلقد عرفت أفتك انواع الألم ، فهان كل ألم عداها ، ولأنها انتصرت على ضعفها ، تطلبت من الجميع مثل هذا النصر ، وغالت فى احتقار الضعف ، وامتهان الضعفاء ، ولم تجد فى التضحية بالنفس متعة أو سروراً ؛ وعاشت بعد ذلك لترقب الناس بعين ناقدة ، فتتجاهل فضائلهم وتسجل نقائصهم ، وتصفها فى مؤلفاتها ، ليقرأها العالم أجمع ، فيشاركها فى احتقارهم ، والزراية بهم .

وأتمت تشارلوت قصتها الثانية ( شيرلى ) فى نهاية شهر أغسطس عام ١٨٤٩ ، فأرسلتها إلى الناشر ، وطلبت رأى نقاده فيها ، فقرأها ثلاثة منهم ، وأرسلوا إليها يقولون : إن شخصيات القساوسة الثلاثة تصبغها روح قوية من المغالاة ، مما يبعدها عن الحقيقة ، ويجعلها أقرب إلى الصور الكاريكاتورية . ولكنها أنكرت عليهم هذا القول ، وأصرت على عدم تغيير شىء منها ، بحجة أنها شخصيات حقيقية ، نقلتها من الحياة حرفا حرفا . والحقيقة أن تشارلوت كانت قد صبت على مساعدى والدها جام غضبها فى هذا الكتاب ، وأنزلت بهم من الأهانات ما لا يحصى ، ولذلك

لم تشأ أن تغير شيئاً ، حتى لا تخف وطأة الوحول التى تريد أن تلطخهم بها ، وشاءت أن يقرأوا القصة ، فيروا أنفسهم فى هذه الصور الزرية .

ولـكن أمراً واحداً كان يشغل بال تشارلوت ، و يدفعها إلى القلق ، وهو بقاء سرية جنسها واسمها الحقيقى ، ولذلك ألحت على الناشر أن يحفظ سر ( كورر بل ) ولا يبوح به لمخلوق ما ، لأنها تريد أن يحكم النقاد عليها وهم يعتقدونها رجلا .

ولكن هذه السرية لم تكن ممكنة ، فلقد فضحت نفسها ؛ ووصفها الدقيق للأماكن والأشخاص أرشد الناس إليها ، فالقساوسة الثلاثة مثلا عرفوا انفسهم ، وكشفوا عن حقيقة اليراعة التى وصفتهم هكذا . ولم يغضبوا كما كان ينتظر ، ولم يحنقوا للإهانات ، بل تقبلوها بصدر رحب ، وضحكوا كثيراً ، وداعب بعضهم بعضا بما جاء فيها ؛ ودهشت تشارلوت للنتيجة التى لم تكن تتوقعها ، ولـكنها دفعت ثمناً غاليا لذلك ، فقد عرف أهل هاوارث حقيقة ( كورربل ) ، وانتقلت الأقوال إلى لندن ، فلم يمض وقت طويل حتى عرف العالم أجمع من هى مؤلفة ( چين اير ) و ( شيرلى ) ؛ وأقبل الناس من كل البلاد ، ونزلوا بالقرية الصغيرة ، ليلقوا نظرة على الكاتبة العبقرية العظيمة .

ومع أن القساوسة الثلاثة ضربوا لها مثلا أعلى فى سعة الصدر وكرم الأخلاق ، إلا أنها لم تستفد من هذا الدرس ، ولم تقتبس منه شيئاً فى حياتها ،

فأحبت من مدحوها ، ورفعتهم إلى قمة المجد والعظمة ؛ وهبطت بالنقاد الذين هجوها ، أو عابوا عليها بعض الأمور ، إلى هاوية التحقير والحقد . وعند ما ظهرت كلمة فى ( الديلى نيوز ) وأخرى فى ( الاوبزيرفر ) ، وكانت كلتاهما تمتدح شيرلى ، ثارت للمديح ثورة غاضبة ، وكالت لصاحبيها الشتائم والإهانات ، لأنهما أشارا إلى جنسها كامرأة ؛ وهى جريمة فى نظرها لا تغتفر .

## ١٧

قد يكون من أصعب الأمور أن نحاول تلخيص قصة « شيرلى » ، فالكتاب فى الواقع ليس بقصة ، بل هو مجموعة شخصيات وضعت فى براعة ودقة ، وبلغ من روعة تحليلها ، ومهارة تصويرها أن ارتسمت امام أذهاننا ، كأنها حية ترزق . وقد يكون أقرب إلى الدقة أن نقول : إن شيرلى مجموعة صور أخذت من الحياة ، دون أن يرتبط بعضها ببعض ، إنما تتوالى فى انتظام ، ليكشف لنا كل منها عن ناحية خاصة من نواحى الحياة الإنجليزية فى ذلك العهد . والكتاب لا يخلو من العيوب ، فالارتباط القصصى غير موجود ، والشخصيات تبرز فجأة دون مقدمات وتختفى كذلك فجأة دون تمهيد ، وكأن صاحبتها جلست — ممسكة بالقلم — تقلب ذاكرتها وتصف الوجوه والشخصيات التى تعثر عليها بين طيات تلك الذاكرة .

ولم تصل شيرلى البتة إلى مستوى جين إير ، ولم تحتل فى عالم التأليف مكانة أختها السابقة ، وذلك لخلوها من العاطفة الصادقة الفياضة التى تستطيع بحرارتها أن تحرق كل العيوب ، وتعمى القارى — فى غمرة اللذة التى يعيش فيها — عن النقائص والأخطاء . ولست أقصد بذلك أنه

كتاب تافه ، بل هو مؤلف قيم له مكانتــه فى الأدب الإنجليزى : فجمال الوصف ، ودقة التحليل والعين الناقده التى تتغلغل فى النفوس ، لترى ما تنطوى عليه من أحاسيس واتجاهات وشعور ، والقلم البليغ الذى يسجل تلك الأمور كعدسة مصورة دقيقة ، كلها فضائل سمت بشيرلى ، وجعلتهـا فى مصاف خير المؤلفات .

والمفروض أن تشارلوت برونتى كتبت هذه القصة لتخليد ذكرى أختها المحبوبة ، والمفروض أيضاً أن شيرلى هى إميلى بالذات ؛ ولـكنها بدأت الـكتابة قبل الأحداث الرهيبة التى وقعت ويبدو أنها لم تكن تنوى إذ ذاك أن تضع أختها فيه ، ولذلك كتبت الثلث الأول تقريباً من غير أن تذكرها بكلمة ؛ وفجأة قطعت عليها الأحداث سلسلة أفكارها ومرضت الأخت وماتت ، ولحقت بها آن بعد قليل فعادت تشارلوت إلى الـكتابة بعد أن خلا البيت من الوجوه المرحة التى ملأت ماضى حياتها بالحيوية والنشاط ، ورأت فى غمرة أحزانها أن إميلى خير بطلة تضعها للقصة ولذلك تبرز شيرلى فجأة فى الـكتاب دون مقدمة أو تمهيد .

وتدور الحوادث حول الحيـاة فى شمال انجلترا ، عندما بدأت الآلات الحديثة تحل مكان الأيدى العاملة ، وما أحدثه ذلك الانقلاب فى البلاد فقد أقبل أصحاب الطواحين الهوائية على استعمال الآلات تمشياً مع روح العصر واقتصاداً فى الوقت والنفقات فحرم آلاف العمال عملهم ، وانتشر الجوع وعم الفقر والعوز . وقاست الطبقات الفقيرة كثيراً ؛ مما افعم النفوس حقداً

على الآلات و بغضاً لأصحاب الطواحين الذين أقبلوا على شرائها وقامت حركات مقاومة شديدة ، وتعددت الاعتداءات فاختل الأمن فى البلاد.

هذا هو الجو العام الذى يسود القصة من مبدئها إلى منتاها أو الأفق الواسع الذى يخيم عليها. وعلى هذا الأفق رسمت تشارلوت برونتي الشخصيات التى مرت بحياتها ، فى الفترة التالية لما ضمنته جين اير . وبدأت الكتابة بالقساوسة الثلاثة الذين تناوبوا العمل لوالدها فى الأبراشية ، ولقد كانت تكره هؤلاء القساوسة ، وتحتقرهم من أعماق قلبها ، فانتهزت هذه الفرصة ، لتصب على رءوسهم جام غضبها ونقمتها وتمرغهم فى الوحول التي يستحقونها فى نظرها . ورسمتهم فى صورة بشعة قبيحة : فثلاثتهم أغبياء ، ضيقوا العقل أقبلوا على الكهنوت سعياً وراء حياة رغيدة مريحة ، وقد تجردت نفوسهم من التدين وروح المسيحية الحقة . وهم يقضون الليالى فى معاقرة الخمر ، والأكل النهم والضحك العالى المبتذل . و يقضون أيامهم فى مغازلة الحسان أما زيارة الفقراء — وهى واجب القس الأول — فيقومون بها مكرهين و يؤدونها بقلوب مليئة بالكبر والعظمة والخيلاء . والجبن نقيصة كبرى فيهم ولذلك يرهبهم الخطر و يخيفهم عواء كلب صغير . وقصارى القول أنهم سخفاء جهلاء من أصل وضيع !

وتناولت والدها أيضاً فى الكتاب ، ووضعته تحت اسم مستر هلستون وافه الأبراشية ، ولم ترحمه هو الآخر . مما يدل على أنها لم تكن تحمل له حباً حقيقياً : فمستر هلستون رجل قوى الشكيمة شديد المراس . ليس شيطاناً

ولا شريراً ، ولكنه « أخطأ فى اختيار مهنته فى الحياة ، وكان يجب أن يكون جندياً . فأبت الظروف إلا أن تجعله قسيساً »

وكان هلستون فى شبابه مغامراً ، واشتهر بجذب قلوب النساء حوله ، وكان يفضل منهن الذكية الجميلة . ومع ذلك لم يحاول أن يتزوج واحدة من النوع الذى يعجبه واختار لحياته فتاة هادئة صامتة باردة لا تستجيب لبسماته وتنهداته، غير أنه استطاع أن يتسلط عليها ، وذلك ما لم يظفر به أحد قبله من المعجبين الكثيرين ؛ فلما تقدم للزواج منها قبلته بلا تردد .

ولكن « الطبيعة لم تقصد أبداً أن تجعل مستر هلستون زوجاً طيباً لامرأة وديعة » ، لأنه لم يكن يفهم النساء ، أو يحاول فهمهن ، بل يأخذهن بظاهرهن ، ولا يتعمق وراء هذا الظاهر ، ليكشف عما يعتمل فى القلب من أحاسيس وشعور « وما دامت المرأة صامتة فى حضرته فهى راضية ، وما دامت لا تشكو من شىء ، فليس لديها ما تشكو منه . »

ولم يلاحظ ضعف زوجته ، ولا انحطاطها الصحى السريع ، فلما ماتت واختفت فجأة عن ناظريه ، حزن عليها ، ولكن لا يعلم أحد مدى هذا الحزن ، وربما كان أكثر مما ظهر على وجهه ، فهو ليس بالرجل الذى تستطيع الآلام أن تنتزع دمعة من عينيه . وعندما دفنت الزوجة انتشرت الأقاويل بين الجيرة ، وقال الناس إنها ماتت حزينة كسيرة القلب لفرط سوء المعاملة ، وهى أقوال مبالغ فيها لا تمت إلى الحقيقة بشىء .

وعاش مستر هلستون بعد ذلك ، ليرعى ابنة أخيه اليتيمة كارولين ،

ولـكنه « لم يكن بطبعه أو بعادته معداً لرعاية فتاة صغيرة ، ولم يهتم كثيراً بتعليمها ولولا رغبتها فى العلم لظلت جاهلة ، وتحقيقاً لهذه الرغبة طلبت من قريبتها هورتنس مور أن تعلمها الفرنسية والفنون النسوية » .

وكان هلستون يكره الزواج ، و يحقد على البلهاء الذين يرتمون فى أحضانه والحوار الآتى بينه و بين كارولين يدل على اتجاهه هذا ؛ تقول له :

— عماه . . . أراك كلما ذكرت الزواج تحدثت عنه باحتقار وكراهية ، فهل تعتقد أنه يجب على الناس ألا يتزوجوا ؟

— من المؤكد أن الخطة الحكيمة تقضى بأن يظل المرء عزباً ، ولا سيما المرأة .

— أ كل زواج تعس شقى ؟

— ملايين منه هكذا ، ولو اعترف الناس بالحقيقة كاملة ، لـكان الزواج كله شقاء .

— أراك تتضايق كثيراً عندما تدعى لعقد زواج ، فلماذا ؟

— لأن الإنسان يجب ألا يساهم فى تحقيق هذا الطيش المجسم .

— ولماذا يكون الزواج طيشاً مجسماً ؟ و إذا أحب اثنان أحدهما الآخر فلماذا لا يقرران العيش معاً ؟

— لأن كليهما سيمل الآخر بعد شهر واحد .

وهكذا تدلل تشارلوت على كراهية والدها للزواج ، ونفوره ممن يقدمون عليه ، وسنرى فيما بعد أن أقوالها تتحقق يوم ترغب فى الزواج من القس

نيكولز — أحد القساوسة الثلاثة ! — فيرفض مستر برونتى هـذا الزواج رفضاً باتاً . وتعترف المؤلفة فى القصة بأنها لا تحب والدها ، و إن كانت تحترمه :

— لست شغوفة به ، ولأن أكون على مبعدة منه أفضل عندى من أن أكون فى حضرته .

وتنتقل تشارلوت برونتى من وصف والدها إلى وصف أختها إميلى التى وضعتها تحت اسم شيرلى . فشيرلى كيلدر وارثة غنية ، تهبط على البلدة وهى فى الحادية والعشرين من عمرها ، لتتسلم زمام ممتلكاتها الواسعة ؛ وهى فتاة حسناء ، طويلة القامة ، أنيقة الحركات ، وعلى وجهها ترتسم آيات الذكاء والقوة ، ومن عينيها تشع روحانية عجيبة ، فيها من الغموض ما لا يتيسر معه فهمها للوهلة الأولى . وشيرلى امرأة صموت لا تحب أن تكشف قلبها للناس ، أو تشكو لأحد ، و إن فاضت بها الهموم تحدثت بها « إلى الفأر الذى يتسلل من شقوق السقف ، أو العصفور الذى ينقر على نافذتها من أجل فتات الخبز ، أو الكلب الذى يلعق يدها ، و يرقد جوار قدميها » .

وتجد شيرلى فى الطبيعة ما يشبع تعطشها إلى الوحدة والجمال : فالبرارى الشاسعة متحركة أو ساكنة ، والسماء الواسعة صافية أو غائمة ، كفيلة بأن تجعل لها الأرض جنة ؛ والحياة أغنية تتردد فى قلبها نفحاتها . و بين أحضان الطبيعة تجرى فى عروقها دماء روح عجيب عميق ، لا يمكن

أن يصل إليه مخلوق دنيوى ، لأنه روح الله ، فيتملكها الخشوع والجلال ، وتقف صامتة تتأمل فى هدوء .

وتمتلىء عينا شيرلى بالدعة والرقة ، ولكن ثورة من الغضب تقلب تلك العيون إلى جمرات من النيران المتقدة ؛ وتنهض كبرياؤها العظيمة ، وتحول بينها وبين الإهانة « فتحت ثوبها الحريرى درع » من القوة والعزة لا يستطيع أحد أن يخترقها .

ولقد نجحت تشارلوت برونتى فى رسم الصورة الظاهرة لإميلى ، وسجلت تفاصيل تلك الصورة مثل عدسة دقيقة ماهرة ، فوصفت شكلها ، وسرورها ، وغضبها ، وجمودها ، وتحفظها ، وحبها للبرارى ، وتأملها الطويل لمظاهر الطبيعة ؛ ولكنها أخفقت كل الاخفاق فى وصف قلبها ، وحقيقة روحها . وطبيعى أن تخفق فى الكتاب ما دامت قد أخفقت فى تبين هذه الأمور فى الحياة ؛ وأحست الكاتبة بإخفاقها ، فأكثرت من ذكر الحوادث المشهورة عن إميلى ، رغبة فى أن تغمر القارىء بصورتها الظاهرة ، فتشغله عن قلبها وروحها ؛ وذكرت مثلا أن شيرلى قابلت يوماً كلباً مريضاً ، وعندما اقتربت منه لتخفف عنه ، عقرها فى ذراعها ، فلم تحدث إنساناً بالأمر ، ودخلت إلى المطبخ ، وحرقت الجرح بالمكواة الساخنة ، واحتملت عذاب الكى فى قوة وصمت ؛ وهو حادث معروف عن إميلى .

وفى حوار بين شيرلى ولويس مور عن حادث الكلب تسجل

تشارلوت احتجاجها الشديد على تحفظ إميلى ، ويقول لويس مور الذى يقوم فى هذا الحوار مقام المؤلفة :

— لِمَ لَمْ تخبرى أحداً ، أو تطلبى المساعدة والعلاج ، ما كان أجدر بك أن تلوذى بى ؟

— بل تقدمت من حجرة الدراسة ( وهى حجرة مور ) وهناك خانتنى الشجاعة ، ففضلت أن أخفى الأمر .

— لماذا ، وأنت تعرفين أن أقصى ما أطلبه من الحياة فرصة لخدمتك ؟

— ليس لى حق عليك .

— فظيع ! ألم تفعلى شيئاً قط ؟

— نعم . . . سرت تواً إلى حجرة الكىّ ، حيث يعملون طيلة الأسبوع ، وبينما كانت الخادم منهمكة فى عملها ، إذ تناولت من النار مكواة ايطالية ، ولمست بطرفها الملتهب الدقيق ذراعى ، واحتملت الألم ، وطهرت الجرح الصغير ، ثم صعدت إلى الطبقة العليا .

— أعتقد أنك لم تتأوهى مرة واحدة ؟

— لست أدرى . . . . كنت تعسة جداً ، ولم يكن لدى شىء من الهدوء .

— ولكن الهدوء كان كامناً فى شخصك . أذكر أننى أنصت طيلة

وقت الغذاء لأسمعك تتحركين فى الحجرة التى فوقنا ، فلم تفعلى ، وكان كل شىء هادئاً .

— كنت أجلس إذ ذاك بجوار الفراش ، أتمنى لو أن فيوبى (الكلبة) لم تعقرنى .

— وحدك ! إنك تحبين العزلة .

— معذرة .

— إنك تحتقرين العطف .

— أنا يامستر مور ؟

— وذهنك القوى يشعرك بعدم الحاجة إلى المساعدة ، او النصيحة ، أو الصحبة .

— فليكن ، إذا كان هذا يسرك !

وتبتسم وتعود إلى تطريزها ، فيتكلم لويس مور مرة ثانية :

— إذا لم يكن هذا هو التفسير ، فما هو إذن ؟

— لست أعرف .

— بل تعرفين ، ولكنك لا تريدين الكلام ، وكل شىء فى قلبك لا سبيل إليه ، فهو موصد عليه .

— لأن مافى قلبى لايستحق أن يشترك أحد فيه .

— بل لأن أحداً لا يستطيع أن يقدم لك الثمن الباهظ الذى تتطلبينه من أجل ثقتك . . . لا أحد يملك ما يكفى ثمناً لشرائها ، لا أحد عنده

من الذكاء والشرف والحكمة ما تنشدين فى ناصحك ؛ وليس فى كل انجلترا ذراع تقبلين الاستناد اليه ، والنجدة به ؛ ولا صدر تضعين رأسك فوقه . طبعاً يجب أن تعيشى إذاً وحيدة .

— أستطيع أن أعيش وحيدة إذا اقتضى الأمر ، وليست المشكلة كيف أعيش وحيدة ، وإنما المشكلة كيف أموت وحيدة . . .

هذا الحديث ـ ولا شك ـ احتجاج شديد من تشارلوت على إميلى ، وصرخة حارة مؤلمة على التحفظ القاتل الذى فرق بينهما طول الحياة ، وحال دون أن تشارك أختها فى آلامها وأتراحها وأفكارها ، خلال الفترة الأخيرة الرهيبة .

وشيرلى كيلدر ـ أو إميلى ـ نمرة متوحشة فى نظر تشارلوت ، يخاف الناس الاقتراب منها ؛ «والشخص الذى يستطيع أن يتقدم منها فى جرأة ، ويحنى رأسها دون أن يحطمها ، ويلهب عواطفها من غير أن ينال من عزتها ، ويقف ثابتاً ، فلا يرتجف للنوائب ، ولا تهزه الأحداث ؛ هو الذى ينجح فى ترويضها ، والربت على رأسها فى أمن وسلام» .

ولكن المؤلفة تعود وتلتمس المعاذير لأختها ، فشيرلى لا تتحفظ احتقاراً لعواطف الآخرين ، ولا تشتد رغبة فى القسوة ، ولكنها تفعل ذلك لأنها امرأة عطوف متكبرة ، وعطفها يدفعها إلى الاشفاق على من تحب ، فلا تحدثهم بآلامها حتى لا تحزنهم وتشقيهم ؛ وكبرياؤها تحول دون أن تتنزل بالشكوى إلى من لا تقيم لهم وزناً . ويوم تنتصر على هذا العطف وتلك الكبرياء ،

وتفصح عما فى قلبها ، تنساب عواطفها كالنبع السلس فى هدوء ورقة وجمال وعذوبة ، فتبدو على حقيقتها شخصاً فريداً نادراً ، « فقلبها مثل المذبح لأنه مقدس ، ومثل الجليد لأنه نقى ، ومثل اللهيب لأنه ساخن ، ومثل الموت لأنه قوى » .

ولا شك أن تشارلوت قد تعبت كثيراً فى كتابة « شيرلى » ، وظلت تدرس وتفكر وتتأمل، لتتمكن من تصوير إميلى كما يجب ؛ فما أفادها التعب والإجهاد شيئاً ، وظلت على جهلها بحقيقة أختها ، وإن نجحت فى إتقان شكلها الظاهرى . فإميلى برونتى ليست نمرة متوحشة ، ينالها الإنسان بالغلبة والانتصار على قلبها وجمودها وتحفظها ، وإنما هى فتاة وديعة ، شديدة الحساسية ، تفهم الإنسانية على حقيقتها ، وتتطلبها ممن حولها ؛ ولا تريد من الحياة إلا أن تترك وحيدة ، فلا يقتحم أحد عليها عزلة تأملها واستقلالها . أما الشدة الرهيبة التى ظهرت منها فى فترتها الأخيرة ، فهى وليدة الحرمان النفسى الذى كانت تعانيه طيلة حياتها ، مضافاً إليه أنانية أختها ، وما رأته فى حالة برانويل من جمود وقسوة .

والفارق العظيم بين جين اير وشيرلى هو أن تشارلوت وصفت فى الأولى الحب بين المرأة والرجل كما هو ماثل فى الحياة ، فارتفعت وسمت الى أوج العظمة والخلود ، واحترقت الترهات والمبالغات فى لهيب العاطفة الساذجة القوية ؛ أما فى شيرلى فقد نحت تشارلوت نحو الدعاية ، وحاولت أن تصف الحب كما يجب أن يكون ، وجعلت تبشر له بطريقة خطابية أفقدت الكتاب

كثيراً من حرارة سابقه وحلاوته . تقول المؤلفة على لسان كارولين هلستون :

— التهالك جريمة ، والجرأة جريمة ، وكلاهما يدفع الى الاشمئزاز ؛ أما الحب فإن أنقى الملائكة وأطهرهم لايتخضب وجهه خجلا من أجله ، وعند ما أسمع أن رجلا أو امرأة مزج الحب بالعار ، أعرف أن ذكرياتهما حقيرة وأن عقليهما غليظان .

وتقول فى مكان آخر على لسان شيرلى التى روضها لويس مور فاكتسب قلبها ومحبتها :

— مستر مور إن قراراتك حكيمة ، وقلبك طيب ، ومبادئك قوية ، وأعرف أنك عاقل ، وأشعر أنك كريم ، وأعتقد أن ضميرك حى ؛ فكن زميلى فى الحياة ، ومعلمى فى جهلى ، ومرشدى حين أخطىء ، كن لى صديقاً دائماً .

فأين هذه الجمل الخطابية من الأحاديث الصادقة الحارة بين جين اير وحبيبها روشستر ؟

## ١٨

بعد ظهور « شيرلى » طبقت شهرة تشارلوت برونتى الآفاق ، وتحدث العالم أجمع عنها ، وانتقلت مؤلفاتها إلى الدنيا الجديدة ، وتدفق المال عليها ، فكانت تكتسب ألف جنيه فى العام ، وهو مبلغ عظيم فى ذلك العهد يماثل أضعافه الآن . وتضاءلت شخصية كورر بل التى اختفت وراءها طويلا ، وعرف الناس حقيقتها ، وسافروا من أنحاء البلاد قاصدين هاوارث ، ليروا موطن المؤلفة العظيمة ، فانقلبت القرية الصغيرة إلى ميدان صاخب يجمع أدباء البلاد وأشرافها ؛ وتجمعت الجماهير فى الكنيسة يوم الأحد ، ووقفت فى صفوف متوازية ، لتمر تشارلوت بينها ، وهى فى طريقها إلى الصلاة .

ودعاها ناشرها مستر سمث للسفر إلى لندن ، والإقامة فى ضيافة أمه العجوز ، فلبت الدعوة فى شهر ديسمبر عام ١٨٤٩ ؛ وهناك حفلت الدوائر الأدبية بمقدمها ، وبالغت فى تكريمها ، وتهافت الأدباء والشعراء على دعوتها والحفاوة بها ؛ وكان الكل على أتم استعداد لمصادقتها ، ونيل رضاها ؛ ولكن الشهرة جاءت متأخرة ، ولم تستطع تشارلوت أن تساير تيارها ، أو تتمتع بشىء منها : فعقدتها النفسية كانت قد تضاعفت فى ذلك الوقت ،

وإحساسها بقبحها ازداد وطغى على مر السنين ، وأصبح فكرة دائمة ثابتة ، لا تستطيع منها خلاصاً ؛ فأساءت فهم كرم الناس ، وتهافتهم ، وعزت إقبالهم عليها إلى الرغبة فى الوقوف على مدى قبح وجهها ، وكانت تعتقد عن ثقة أن من ينظر إلى وجهها مرة ؛ يتألم أشد الألم ، فلا يعاود النظر ثانية إلى الركن الذى تجلس فيه !

وأملى هذا الشعور عليها تصرفات غير مرضية ، فأمسكت يدها عمن أرادوا مصافحتها ، وأبت أن تؤمن بحسن نية من يحتفون بها ، بل بادأتهم بالعداء ، وجعلت ترقبهم بنظرات نافذة ساخرة ، وأجابت على مجاملاتهم بكلمات خشنة جارحة ؛ وأحست بالقلق فى حضرة الناس ، ودفعها هذا القلق إلى تصرفات عجيبة ، فتارة لا تجيب عن أسئلتهم ، وتارة لا تشاركهم فى أحاديثهم ، وتارة تقهقه ضاحكة فيما لا تستدعى الضحك ! ودعيت مرة لرؤية الممثل ماك ريدى الشهير ، فكتبت تقول :

« ... ودهش المدعوون عندما أعلنت أنه لم يعجبنى ، فالعقيدة الحديثة السائدة ، أن يجن الناس بجمال تمثيله ، مع أنه محروم من النبوغ ، ولم أر مثيلا لطريقته المصطنعة الثقيلة فى الإلقاء والحديث . وكان المسرح والتمثيل سخافة ما بعدها سخافة . . . إنهم لا يفهمون شيئاً عن التراجيديا أو شيكسبير ، ولذلك يفشلون دائماً فى التمثيل . قلت هذا بصراحة ، فأحدث كلامى جموداً وصمتاً عميقاً ؛ ولقد اضطررت إلى المعارضة فى كثير من المناسبات، فجرحت شعور الناس بهذه المعارضة ؛ و يبدو أن العرف المتبع الآن

هو الإعجاب بالشعر الضعيف الغامض المعقد التافه ، مثل ما تكتبه اليزابث باريت براوننج ، ولقد عرضوا عليّ قطعاً ظنوا أن كورر بل سيعجب بها ، فلما لم يفعل غضبوا وتضايقوا . لا أظن أننى أحب الحياة فى لندن ، وإذا اضطررت يوماً لذلك ، فسأتجنب الاختلاط بالناس ، وبخاصة الطوائف الأدبية ... »

هكذا كانت حياتها فى العاصمة سلسلة من بلبلة الفكر ، وغلظة الطبع ، وقلة الذوق ؛ فأدبر الناس عنها بعد إقبال ، وتجنبوا لقاءها من أجل ملحوظاتها القاسية ، وفروا من صحبتها هرباً من نظراتها الساخرة الناقدة .

وكانت تشارلوت تقدس ثاكارى الأديب العظيم ، وترفعه إلى مصاف الآلهة ، فدعاه مستر سميث لتناول الغداء معها ، ولما حضر تغلب الحياء عليها ، ولم تبادله أولا كلمة واحدة ، ثم اندفعت فجأة فى حديث جارح له ، وأحدثت تلك المقابلة بينهما جفوة ، وأحست تماماً بوطأتها ، فلم تشأ الاعتراف بأن خجلها وشذوذها هما السبب ، وحملته وحده تبعات ذلك ، وعزت الجفوة إلى نقص فى شخصيته ، وشذوذ فى أخلاقه ، وتضاءل شبحه الجبار فى ذهنها ، وتضاءل معه تقديرها لكتبه ومؤلفاته العظيمة . كتبت تقول عن تلك المقابلة :

« ... وأخيراً إن لم يكن آخراً قابلت مستر ثاكارى ، حين حضر لزيارتى ذات صباح ، وجلس معى أكثر من ساعتين ، ولم يكن معنا غير مستر سمث : ولقد سبق أن قلت إن المقابلة كانت عجيبة ، وفى الواقع كانت

كذلك ، إذ جلس العملاق أمامى ، ودفعنى إلى التحدث معه عن أعماله الأدبية ، وفجأة تواردت على ذهنى أخطاؤه واحدة إثر واحدة ، فواجهته بها ، وصارحته بأمرها ، وطلبت منه إيضاحاً لها أو تفسيراً ؛ ودافع عن نفسه كما يدافع تركى كافر ، أى أن أعذاره كانت غالباً أقبح من أخطائه ... »

وعادت تشارلوت إلى هاوارث غير آسفة وغير مأسوف عليها ، وحوتها جدران الأبراشية من جديد فتنازعتها أشباح الماضى العزيزة ، وزادت وحشة الوحدة عليها ، ولم تعد تجد لذة أو عوضاً عمن فارقوها ، فى صحبة والدها العجوز الذى أقبل أخيراً على الخمر ! وفى ذلك العهد أراد الناشر إعادة طبع مرتفعات وذرنج وأجنس جراى .

وطلب منها أن تكتب المقدمة ، فخطت قطعة مؤثرة أشد التأثير ، تصف فيها أيام إميلى الأخيرة ، وتنقد مرتفعات وذرنج ، وتعتذر إلى القراء — كما ذكرنا سابقاً — عن الروح الشرير الذى يسود القصة من مبدئها إلى منتهاها ، وعن الظلام الذى يظلل كل صفحة من صفحات الكتاب . ودافعت بحرارة عن مواطن الحسن فى نظرها ، وامتدحت الشخصيات التافهة فى الكتاب مثل شخصية نلى دين و إدجار لنتون ، وقالت إن إميلى التى استطاعت خلق هاتين الشخصيتين — لو امتد بها العمر — لتجلت للناس مواهبها ، وتحسن تصويرها للشخصيات النبيلة ، ورسمت الكثير منها فى دقة و إتقان .

وهذه المقدمة تثبت أن تشارلوت لم تفهم مرتفعات وذرنج ، فالحب الوحشى الذى يتمثل فى هيثكليف ، والروح الشرير الذى يسود القصة ، والحلك الذى يجلل سواده كل صفحة من الصفحات ، كل أولئك سر جمال الكتاب وعظمته ، ولو أن إميلى حاولت أن تكتب غير هذا اللون ، لما عرف نبوغها ، ولذهبت عبقريتها أدراج الرياح .

واقتضى عمل تشارلوت تقليب أوراق أختيها من جديد ، لاختيار قطع شعرية لم يسبق نشرها ، فأعاد هذا العمل إلى ذهنها الكثير من الذكريات المؤلمة ، وكتبت تقول :

« . . . لقد جددت قراءة الأوراق الذكريات ، وجلبت معها الحزن الكثير ، وامتلأت نفسي انقباضاً لا يحتمل ، وخيل إلى ، بعد ليلة أو ليلتين ، أننى لن أستطيع احتمال ذلك الانقباض حتى مطلع الفجر . ولكن عندما يتنفس الصباح تتنازعنى الآلام مرة أخرى » .

واشتدت بها الذكريات . فكرهت البقاء فى هاوارث . وتعدد سفرها بعيداً عنها . وقامت بزيارات عدة فى لندن وغيرها . ونزلت ضيفة على صديقتها الجديدة مس مارتينو الكاتبة المعروفة . وكانت تشارلوت على غير عادتها تحب هذه السيدة . وتقدر فيها العبقرية والنبوغ . وتصفها بالعظمة وطيبة القلب . كتبت إلى والدها تقول عنها :

« ... إنها تعطف كثيراً على . ولو أننى تافهة القيمة إذا قورنت بها » .

وكتبت إلى مستر وليامز تقول :

« . . . لا يسيئنى قط أن أحس إلى جوارها بالضآلة الذهنية والمعنوية . . . »

وكان السر فى هذا الحب الشديد ، والتقدير العظيم ، ما أظهرته مس مارتينو من الإعجاب بجين إيروشيرلى ، ففتح هذا الإعجاب الطريق واسعاً إلى قلب مؤلفة القصتين .

ولم تكن حياة الخمول ترضى تشارلوت ، أو تلائم نشاطها الذهنى ، فأقبلت على التأليف مرة أخرى ، وبدأت قصتها الثالثة « ڤيليت » فى يوليو عام ١٨٥١ .

وتتناول هذه القصة الفترة الثالثة من حياتها ، وهى التى تلى ما وصفته فى شيرلى ، وتدور حول حوادث بروكسل ومسيو هيجير ! وفى بادىء الأمر تقدمت بالقصة مسرعة ، وانساب العمل بين يديها ، لأنها كانت تسجل فترة تركت وراءها ذكريات لا تنسى ؛ وقبعت بين جدران هاوارث تكتب فى نشاط ، ورفضت الدعوات ، وأصرت على البقاء وحيدة لإتمام الكتاب

وحل الشتاء ببرده وأمطاره ، فتخاذلت قواها ، وانحطت صحتها ، وأصابها صداع لا يبرح رأسها ، وعاودتها نوبات أمعائها السابقة ، وهجرها الوحى ، فتركت المسودات ، ولازمت الفراش أسابيع متعاقبة ؛ وعندما شفيت كان أول عمل قامت به أن سافرت إلى سكاربورو ، لترى الضريح الذى أوصت بتشيده فوق قبر آن ، وظلت هناك فترة من الزمن ، عادت بعدها إلى هاوارث وقد استعادت نشاطها المفقود ، فانكبت فوق أوراقها من جديد .

وفى أواخر شهر نوفمبر عام ١٨٥٢ أتمت تشارلوت كتابها الجديد ، وأرسلت « ڤيليت » إلى الناشر تطلب رأيه ، فأبدى لها ملاحظاته ، ولكنها أبت أن تأخذ بها ، أو تغير منها كلمة واحدة ! ولقد أحسنت تشارلوت صنعاً بعنتها ، لأن دقائق الكتاب تدور حول فترة خاصة ، هى أدرى الناس بحقيقة ما تضارب فيها من أحاسيس وشعور ، وقد وضعت تلك الأشياء كما كانت تحس بها تماماً ، فخرجت القصة فريدة فى عبقريتها وجمالها ، وسمت بكثير عن شيرلى ، وكادت تصل إلى مستوى جين إير .

وظهر الكتاب فعلا دون تغيير فى شهر يناير عام ١٨٥٣ ، وما تم طبعه حتى أرسلت تشارلوت نسخة منه إلى صديقتها الحميمة مس مارتينو ، وأرفقتها بخطاب تطلب فيه نقدها ، وتناشدها الصراحة التامة مهما بلغت تلك الصراحة من قسوة . وتقول :

« . . . أعرف أنك ستبدين رأيك فى صراحة ، كما لو كنت تحدثين أختاً عزيزة تفضلين صالحها على المجاملة . إننى أرتجف خوفاً من النقد كأى مخلوق ضعيف من دم ولحم ، ولكنى أجل الحقيقة ، وأنحنى أمامها بخشوع فدعيها تلطمنى على خدى . ولو انفجرت لذلك الدموع من عينى . وسأتذرع بالشجاعة ، وأدير لها الناحية الأخرى من وجهى ، لتنالنى اللطمة الثانية ، فاضربى فى جرأة وأمان . . . »

وإجابة لهذا الرجاء الحار ، أبدت مس مارتينو لصديقتها رأيها الصريح فى ڤيليت ، ولم يكن الرأى مديحاً على طول الخط ، بل أخذت على القصة

بعض مآخذ ، وكتبت فى ( الديلى نيوز ) تقول إن حب البطلة لأستاذها بول إمانويل يحدث فجأة دون تمهيد بعد حبها للدكتور جون ، وعابت على كورر بل حملته القاسية على البابوية والكنيسة الكاثوليكية .

ومع أن تشارلوت هى التى طلبت النقد ، فإنها ثارت غضباً له ، ولم تدر وجهها الى الناحية الأخرى لتتقبل راضية اللطمة الثانية ، بل رفعت راية العداء من فورها ؛ ودافعت بشدة عن وجهات نظرها ، وقاطعت صديقتها القديمة نهائياً ، وأرسلت اليها خطاباً تقول فيه : « إن الهوة العميقة التى تفصل بين آرائهما ومبادئهما أوسع بكثير من أن تسمح بالصداقة » ! وهكذا انتهت الصلة الحارة التى كانت تربط بين الكاتبتين ، ولم تر إحداهما الأخرى بعد ذلك .

***

على الرغم من تعدد النقد ، وشدته فى بعض الأحيان ، اعترف الناس جميعاً بعظمة ڤيليت ، وسموها كثيراً عن سابقتها شيرلى ؛ ونجحت تشارلوت برونتى فى كتابها كل النجاح ، لأنها كانت تترجم عن نفسها ، و بوحى من قلبها .

وفى هذه القصة رسمت الكاتبة حياتها ، ومن عاشوا حولها فى دقة تامة ، ولم تعمد الى الخيال ، وسردت الحوادث التى وقعت لها سرداً دقيقاً متسلسلا ، ساعد المؤرخين بعد وفاتها على استكشاف كل دقيقة من دقائق أسرارها الخاصة . ولم تكن تشارلوت تقصد بمؤلفاتها الثلاثة أن تطلع الناس على قلبها وما يطويه ، بل كانت تظن أنها قد خدعت العالم أجمع بالأسماء المستعارة التى وضعتها للأماكن والأفراد ؛ وسرد الحوادث بتلك الدقة هو سر عبقريتها .

## ١٩

تتلخص قصة (ڤيليت) فى أن فتاة يتيمة اسمها لوسى سنو تقلب لها الحياة ظهر المجن ، فتضطر إلى العمل لاكتساب رزقها ، وتعمل لسيدة عجوز ، تموت قبل أن توصى لها بالمال الذى وعدتها به . وتهيم لوسى على وجهها ، وتهجر انجلترا ، وتستقل باخرة إلى بلچيكا ، وعلى ظهر تلك الباخرة تقابل فتاة خليعة هى چينڤرا فانشو ، وتنصحها تلك الفتاة بالذهاب إلى مدرسة مدام بك فى مدينة ڤيليت .

وتهبط لوسى وحدها على وطن غريب ، وتفقد حقيبتها بما فيها من نقود وملابس ، ولا يتبقى معها إلا ما يوصلها بصعوبة إلى المدينة المنشودة ، فتسافر اليها دون تردد ؛ وتصل فى المساء الى ڤيليت ، وتهيم فى الطرقات حتى تلقى بها المقادير أمام باب مدام بك ، فتدخل من فورها ، وتعرض أمرها على السيدة ، وتناشدها أى عمل ترتزق منه . وتستدعى مدام بك ابن عمها الأستاذ پول امانيول ، وتطلب نصحه وإرشاده ، فيتأمل وجه اليتيمة قليلا ، ويظهر رضاه ، وتعمل لوسى سنو منذ ذلك الوقت مربية لبنات مدام بك . وتحتاج صاحبة المدرسة إلى مدرسة للغة الإنجليزية ، فترتقى لوسى من تربية الأطفال إلى تعليم الفتيات الأنيقات الثريات .

وتمر الأيام بطيئة ثقيلة ، وتحل العطلة المدرسية ، فتنصرف التلميذات والمدرسات إلى بيوتهن ، وتبقى لوسى وحيدة بين جدران المدرسة ، لا صديق لها ولا أنيس ، وتلعب الوحدة بأعصابها ، فيزايلها النوم ، ويعذبها الأرق وتنحط حالتها الصحية والمعنوية ، حتى توشك أن تجن ، وفى غمرة أحزانها ومتاعبها تخرج يوماً إلى المدينة ، وتتجه إلى الكنيسة الكبرى ، وتلقى بنفسها أمام القس تطلب الاعتراف . ويكشف الأب سيلا أنها بروتستانتية المذهب ، فيتردد فى قبول اعترافها ، ثم يعود ويقبل أملا فى أن يستطيع حملها على اعتناق الكاثوليكية فيما بعد ؛ وتفرغ للقس آلامها وأحزانها ، وتخرج من لدنه متعثرة مترنحة ، ويطبق عليها ظلام الطريق ، وتسقط مغشياً عليها بين ذراعى طبيب انجليزى شاب اسمه جون بريتن ، فينقلها إلى بيته ، ويعهد بالعناية بها إلى أمه الطيبة العجوز .

وترتبط لوسى مع أسرة بريتن بصداقة حارة تنقلب على ممر الأيام حباً طاغياً للطبيب الشاب ، ولكنها تكشف حبه لجينفرا فانشو الطالبة الخليعة بمعهد مدام بك ، التى سبق أن قابلتها على ظهر الباخرة ؛ فتكبت لوسى حبها له ، وتبقى صابرة ترقب مجرى الأمور ، وتثبت الأيام للدكتور جون عدم أهلية جينفرا له فيتحول قلبه عنها إلى بولينا هوم صديقة طفولته ، وترى لوسى استحالة حبه لها ، فتحارب عاطفتها ، وتتغلب عليها ، وتدفن خطاباته الخمسة فى حديقة المدرسة ، وبذلك تدفن حبها له إلى الأبد .

ويظهر فى الميدان الأستاذ پول امانويل ، وتتصادم معه فى بادىء الأمر ،

ويختلفان ويتشاجران كثيراً ، وفى النهاية يربط بينهما حب جارف عميق. ولكن الأستاذ لا يستطيع الزواج من حبيبته ، لأنه عاهد النفس على عدم الزواج ، وكرس ماله للفقراء والمحتاجين ؛ وتحس مدام بك بالعاطفة الجديدة التى نشأت بين ابن عمها والمدرسة الإنجليزية ، فتبذل الجهد دون استمرار هذه العاطفة ، وتتجسس على لوسى ، وتطاردها بكل أنواع المطاردة ، فيهجر امانويل المدرسة ، ويقرر السفر بعيداً ، لحزن لوسى ويأسها .

وفى اللحظة الأخيرة يعود الأستاذ لوداع حبيبته ، ويخبرها أنه أعد لها مدرسة كاملة ، لتديرها وترتزق منها حتى يعود بعد سنوات ثلاث ، ويعدها بالزواج ، فتبقى فى انتظاره فرحة سعيدة .

* * *

هذا هو مجمل القصة التى صبت تشارلوت فيها حقدها على رأس مدام هيجير ، فانتقمت من المرأة التى تكرهها أفظع انتقام ، ورسمتها فى صورة قبيحة ، أشركت العالم معها فى احتقارها والغض منها .

فمدام بك — أومدام هيجير — امرأة وضيعة الأخلاق ، بغيضة الطباع وفى الليلة الأولى لوصول لوسى سنو ، تسللت إلى حجرتها تحت جنح الظلام وتصفحت أوراقها ، وقرأت خطاباتها ، وطبعت مفاتيحها على شمع لصنع نظيرها ؛ فالتجسس فيها نقيصة لا علاج لها .

ومدام بك سيدة أنيقة الملبس ، متناسبة التقاطيع : لها قامة قصيرة ممتلئة ، ووجه مستدير يشوب بياضه حمرة خفيفـة ، وعيناها زرقاوان صافيتان ،

ومظهرها متزن هادىء ، ولكن على وجهها ترتسم تعبيرات تنافى هذا الهدوء ، فجبهتها الضيقة لا تدل على ذهن متسع ، ونظرتها المتغلغلة لا تعرف الرقة ، ولا تعبر عن النيران التى تشتعل فى القلب ، وشفتاها الرقيقتان لا تنمان على رفق وشفقة .

وكانت ناعمة المظهر ، ويقال إنها لم تؤنب يوماً مدرسة اللغة الانجليزية السابقة على إدمانها الخمرة وخروجها على النظام ، و إهمالها العمل ، ومع ذلك طردتها شر طردة يوم وجدت من تحل محلها . وهكذا كانت دائماً لا تجد أخطاء فى مدرساتها ما دامت فى حاجة إليهن ، ومتى زالت هذه الحاجة ، طردتهن و بدلتهن فى قسوة لا مثيل لها ؛ فكانت الوجوه تجىء وتختفى فجأة دون أن يعرف أحد سبباً لذلك أو إيضاحاً .

وتسير المدرسة فى دقة ونظام بفضل أساليبها العجيبة فى التدخل والتجسس ؛ ومع ذلك كانت تعرف قيمة الأمانة ، وتقدرها فى الآخرين ، وتعتبرها صفة نادرة ما اتفقت مع مصالحها الخاصة ، وأغراضها الشخصية . وكثيراً ما كانت تعلن تأففها من الأسلوب الذى تسير عليه ، ومع ذلك لا تكف أبداً عن تفقد المدرسة فى الظلام ، والانتقال خفية بين الحجرات ، لتختلس النظر من كل ثقب ، وتسترق السمع من كل باب .

ولمدام بك مساعدات فى هذا العمل البغيض ، ولكنها تعرف قيمتهن الحقيقية ، فقصرت جهودهن على التجسس فقط ، و إذا أرادت شيئاً نبيلا ، بحثت فى محيطها عن شخصية شريفة تستطيع القيام به . وكلمة السر عند

مدام بك ومحور كل أعمالها ، وخلاصة حياتها المصلحة الخاصة ؛ ولم يكن عندها للشعور وجود ، ولم يستطع أحد أن يكسب ودها عن هذا الطريق ، « فمحاولة لمس قلبها وتحريك شعورها باعث على إثارة كراهيتها ومقتها ، لأن مثل هـذه المحاولات تثبت موت قلبها وتذكرها بالنقطة المتحجرة بين جنبيها » .

أما عملها فهي قديرة عليه إلى أبعد حد ، وتخصص جهداً كبيراً للاحتفاظ بمستوى مدرستها ؛ ولكن قوتها وجبروتها أوسع من أن يفرغ فى معهد صغير، وكان يجب أن تحكم أمة كبيرة ، أو تقود مجتمعاً ثائراً « فهى حازمة عاقلة قوية » لا ينتصر أحد عليها ، أو يثير أعصابها ، أو يستنفذ ذرة من صبرها . وبهذه الصفات القبيحة القوية استطاعت مدام بك أن تجعل حياة لوسى سنو جحيما مستعراً ، وتجسست عليهـا ، لتحول دون سعادتها القلبية مع پول إمانويل . وعلى لسان لوسى تعلن تشارلوت حقدها على زوجة أستاذها، وتكشف عن شعورها نحوها :

— اتركينى وحـدى . . . ابعدى يدك عن حياتى وعن متاعبى ، ففى يدك الصقيع والبرد ، وفى أنفاسك السم والمرض .

وفى مكان آخر تقول :

— وبدت أمامى على حقيقتها ، وأصبح القناع الذى يحجب وجهها ، والثوب الذى يغطى جسمها ، شبكة رثة كثيرة الخروق ، استطعت أن أرى خلالها مخلوقاً لا قلب له ، ملىء بالشهوة ، ولا خير يرتجى منه .

أما الأستاذ بول إمانويل — أو مسيو هيجير فى الحقيقة — فقد قست عليه أولا بعض القسوة ، وأبانت أخطاءه ونقائصه ، ثم التمست المعاذير لتلك النقائص والأخطاء ، وعزت الكثير منها إلى تربيته الكاثوليكية المتطرفة ؛ وانتهزت هذه الفرصة ، فحملت حملة شعواء على النظام البابوى ، ودافعت عن البروتستانتية ورفعتها إلى السماء . وكانت لوسى سنو تعرف كل هذه الأخطاء ، ومع ذلك أحبت أستاذها حباً جارفاً لأنها تبينت حقيقة المعدن النقى الذى يختفى وراء القشرة الخشنة الظاهرة .

وبول إمانويل أسمر اللون ، صغير الحجم ، حسن المظهر ، حاد التقاطيع وشعره أسود غزير ، وجبهته عريضة مقطبة ؛ ولكنه قلق ، ومزاجه نارى متقلب ، فتارة يهدأ كنسيم الربيع ، وتارة أخرى يثور فى مثل قصف الرعد ؛ والمعارضة أبغض شىء إلى نفسه ، اللهم إلا إذا كان الشخص الذى يعارضه يملك قوة كافية لإفحامه .

ولبول إمانويل شخصية طاغية ، وثقة بالنفس لا حد لها ، فآمنت له بذلك مدام بك ، وتركته يصول ويجول فى المدرسة ، دون حسيب أو رقيب ، فنبل أخلاقه يجعله أهلاً « لأن يتعهد فرقة كاملة من أجمل النساء ، فلا يصيب إحداهن ضر تحت قيادته » . ومع أن معظم التلميذات البلجيكيات أبعد ما يكن عن نقاء الذهن وطهارة النفس ، فان تجرؤ واحدة منهن أن تكشف عن حالتها الباطنة فى حضرته ، أو تتحداه بالابتسام أثناء

غضبه ، وعندما ينقلت وجهه ، ويرتدى قناع النمر ، يسود السكون ، ويحل الرعب فى قلوب الجميع .

والغيرة صفة ملازمة له ، ومع أنها مكروهة فى الغير ، فهى محبوبة فيه لأنها تثير طبيعته ، وتوقظ روحه ، وتلقى مختلف الأضواء على وجهه الجامد الواجم ؛ وغضبه ممتع كل المتعة ، لخلوه من الغش ، أو سبق الإصرار ، ونقائه التام من النفاق .

وبول إمانويل تقى بمعنى الكلمة ، يمارس حرمان النفس ، ويلتذ بالتضحية من أجل غيره ، ويرى أن النساء حريات بمثل هذا الشعور ، ويريد أن تكون كل واحدة منهن رسول الرحمة والسلام ؛ وعندما علم أن لوسى سنو قضت العطلة المدرسية فى صحبة فتاة مريضة بلهاء فحطمتها تلك الصحبة جسما وروحاً ، قال لها :

— إذاً قلبك ضعيف ، وتنقصك الشجاعة ، وربما الإحسان ، وصفاتك لا تناسب أخت الرحمة .

— لست أدرى ، ولكنى عنيت بها على قدر الإمكان ، فلما جاءت خالتها ، وأخذتها من المدرسة أحسست براحة كبرى .

— إنك أنانية ، وفى المستشفيات نساء يقفن حياتهن على خدمة مئات من أولئك البائسات ، ولكنك لا تقوين على ذلك .

— هل تقوى أنت ياسيدى ؟

ـــ إن النساء يجب أن يتفوقن على جنسنا الأنانى الخشن ، المعرض للزلل ، بقوة تمكنهن من آداء هذه الواجبات .

ـــ لقد غسلت جسمها ، ونظفتها وأطعمتها ، وحاولت جهدى أن أسليها ، ولكنها بدل أن تجاذبنى أطراف الحديث ، كانت تقلب فمها فى اشكال عجيبة !

ـــ أو تظنين أنك بذلك قد قمت بعمل عظيم ؟

ـــ لا ، ولكنى فعلت أكثر مما يمكننى أداؤه :

ـــ إذاً فقوتك المعنوية محدودة ، ولذلك مرضت فى خدمة فتاة بائسة مسكينة .

وهو سريع الغضب ، نارى المزاج ، أقل الحركات تثير لهيب مزاجه ، فتنهمر أقسى الشتائم من فمه ، ليقتص ممن أهانه بهذه الحركة ، فإذا ما استقرت الشتائم فى هدفها ، وأحدثت الأثر المطلوب ، زال غضبه على الإثر ، وانتشرت على وجهة دلائل الرقة والندم ، ويطلب الصفح والمغفرة فهو رجل « إن لم يكن طيباً فهو ذو صفات طيبة عدة » .

ولم يكن للمال قيمة عنده ، فهو ينفق دخله وراتبه على الفقراء والمحتاجين ولا يبقى لنفسه غير القليل الذى لايكاد يكفى طعامه الضئيل . وفى يوم عيد ميلاده يطلب هدية من كل مدرسة وطالبة ، ولكن خاتماً ماسياً ، أو علبة سعوط فضية ، ما كانت ترضيه قدر زهرة صغيرة ، أو هدية تافهة القيمة .

وكان يشبه بونابرت فى حبه للسيادة والسيطرة ، وتدفعه هذه الصفة ،

لأن يعطف على من هم دونه ثقافة وعلماً ويرضيه ويسره دائماً أن يجد فى دروس لوسى أخطاء يصححها ، وعند ما كانت تكتب موضوعاً صحيحاً ، يثور غضبه ، وتجمد عواطفه ، وتقسو كلماته ، لأنه يشعر إذ ذاك أنها لم تعد فى حاجة إلى إرشاده . وكان يشاجر كل امرأة مثقفة ، ويطرد كل مدرسة نابغة فى المدرسة ، إن لم تصبغ نبوغها بالخضوع له ، وإكبار مواهبه . ولقد طرد فعلا مدرسات عديدات ، وعند ما سمع بعد ذلك أنهن يقاسين شظف العيش ، قلب الدنيا رأسا على عقب من أجل أن يجد لهن عملا جديداً أفضل مما حرمهن إياه .

ولمسيو پول أمانويل غرام شديد بالتعمق فى دراسة النفوس ، فتراه يتأمل وجه الطالبة أو المدرسة بنظرة متغلغلة تصل إلى الذهن والقلب ، بحثاً وراء غرور أو كبرياء أو خداع قد تنطوى عليه النفس ؛ وويل لمن يجد فى قلبها ذرة من هذه المساوىء . أما إذ أخفق فى الوقوف على تلك الرذائل ، جعل يجرب طرقا جديدة فى الاختبار ، وكلما خابت طريقة أتبعها بأخرى ؛ وعند ما تثبت أقسى التجارب وأعظمها نقاء ذهن فريسته ، وطهارة قلبها ، يتركها تعبة محطمة ، وقد امتلأت نفسه تقديراً وإعجابا بالمعدن الثمين الذى صنعت منه .

ومهما غضب أمانويل ، ومهما ثار وأهان ، فانه يكفى أن يبتسم ، ويمد يده مصالحاً ، فلا يستطيع المرء أن يرد يده خائبة .

## ٢٠

جدت في حياة تشارلوت برونتي أحداث لم تكن منتظرة أو متوقعة ، فقد كان مستر نيكولز مازال يعمل قساً في أبراشية هاوارث منذ ثمانية أعوام ، وهو نفس الرجل الذي كرهته الكاتبة طويلا ، وتناولته بلسانها اللاذع ، وقست عليه في خطابها لإلين ، وقالت عنه في تلك الخطابات : إنه ضيق الذهن ، ثقيل الظل ، لاتستطيع أن تجد فيه ذرة من الطيبة أو النبل ، فضلا عن أن أهل الأبراشية يمقتونه جميعاً ، وعندما سافر إلى إرلندا لقضاء عطلته ، تمنوا لو أنه بقي هناك ، ولم يتعب نفسه بالعودة .

وكان هذا هو الشعور الذي تحمله تشارلوت له في بادىء الأمر ، ولكن هذا الشعور رق على مر الأعوام بعض الشيء ، فلما كتبت قصتها « شيرلي » وهجت القساوسة الثلاثة ، لم تقسُ عليها قسوتها على زميليه ، ونقدته كثيراً تحت اسم المستر ما كارثي ولكنها اعترفت في نهاية القصة بأدبه وضميره الحي .

ويرجع هذا التحول في قصة تشارلوت إلى ما لاحظته من اهتمامه بها ، وما أحست به من عطفه عليها ؛ فقد كان نيكولز يكن لها في

الواقع احتراماً عظيما ، انقلب مع الزمن الى حب عميق ، وتردد كثيراً فى أن يُفاتحها بأمر هذا الحب خشية أن ترفض ، فقد كانت صورة مستر ما كارثى ما تزال ماثلة فى ذهنه ، وأخيراً تغلب على تردده ، وجمع أطراف شجاعته ، وانتوى أن يحدثها بالأمر .

وفى يوم من أيام شهر ديسمبر عام ١٨٥٣ ذهب القس لتناول الشاى فى دار الوافه ، فكتبت تشارلوت الى إلين تصف ماحدث إذ ذاك :

« . . . بعد تناول الشاى انسحبت من حجرة الطعام ، وبقى مستر نيكولز مع والدى حتى التاسعة مساء ، ثم سمعت باب الحجرة يفتح ، كأن الضيف فى طريقه الى الانصراف ، وتوقعت أن أسمع صرير باب الخروج ، ولكنه توقف فى الممر ونقر على بابى ، وفى سرعة البرق توقعت ماسيأتى : ودخل علىّ ، ووقف أمامى ؛ ومن السهل أن تدركى ما قال ، أما الطريقة التى تحدث بها فلن يمكننى أن أنساها مدى الحياة ؛ كان يرتجف من الراس إلى القدم ، وقد اصفر وجهه ، وانخفض صوته ، وتقطعت الكلمات على شفتيه ، فعرفت الثمن الذى يدفعه الرجل للافصاح عن شعوره ، وهو غير واثق من النجاح . . . . »

وفى هذا الأسلوب الحار كشف نيكولز عن حبه لتشارلوت ، وطلب منها أن تشاركه فى حياته ، وتتزوج منه ، فاستمهلته الى اليوم التالى ، فانصرف هادئاً . ودخلت إلى والدهـا فى حجرة مكتبه ، وحدثته بالأمر فثار الوافه ثورة عظيمة ، وانفجرت براكين غضبه ، وانهال على حبيبها شتما

وتحقيراً فقد كان مستر برونتي يغفر كل طيش ما عدا الزواج ، ولأهون على نفسه أن يدفن بناته واحدة فواحدة ، من أن يسمح لإحداهن بالزواج .

واربد وجهه لفرط الغضب ، واحمرت عيناه و برزت العروق من جبهته ، فوعدته تشارلوت بالرفض ، وانصرفت من الحجرة على عجل وكتبت الى إلين تقول :

« . . . لو أنني كنت مغرمة بمستر نيكولز لنفد صبري أمام الشتائم والنعوت التي نسبها والدي اليه ، وعلى ما أنا عليه غلى الدم في عروقي لهذا الظلم الفادح . . . . » .

وكانت نتيجة الرفض ، أن استقال مستر نيكولز من عمله في الأبراشية ، وقرر أن يغادر المكان .

وفي خلال الفترة التي سبقت الرحيل انقطع المحب عن الطعام ، واستسلم إلى الحزن والوجوم ، وتحدث إلى برنتي العجوز في خشونة لا مزيد عليها ولم يبذل جهداً في سبيل التغلب على الصدمة ؛ وفي يومه الأخير ، وقف على منصة الكنيسة يودع أهل البلدة ، فلما رأى تشارلوت تجلس بينهم احمر وجهه ، وطفرت الدموع من عينيه وبكى الحاضرون شفقة عليه .

وتأثرت تشارلوت من الموقف ، ووثقت من حبه لها ، فعقدت العزم على تحقيق أمنيته ، ولكنها لم تشأ أن تتحدى والدها جهراً ، و بدأت تعمل في سكون وهدوء لتصل إلى بغيتها . وسافر نيكولز كما تقرر من قبل ولكن المراسلات ظلت قائمة بين الحبيبين ، وبعد بضعة شهور عاد القس لزيارة

هاوارث سراً ، ونزل مرتين ضيفاً على زميل له ، وهناك قابلته تشارلوت فى خفية عن العيون .

وفى أوائل عام ١٨٥٤ خضع مستر برونتى لإلحاح ابنته ، ورضى بالزواج كارها ، فأعلنت الخطبة ، وعاد القس إلى عمله القديم ، فساد الأبراشية مرح لم يعهد من قبل، وانهمكت الكاتبة الكبيرة فى إعداد ملابس العرس، وأعادت طلاء جدران الحجرات ، وجددت الكثير من الرياش ، وتكتمت أمر الزواج ، ولم تدع أحداً لحضوره غير إلين ناسىومس وولر ناظرتها القديمة

وفى اليوم التاسع والعشرين من شهر يولية عام ١٨٥٤ زينت الكنيسة بالورود احتفالا بالزواج ، وارتدت تشارلوت ثوب العرس الأبيض ، ووقفت تنتظر والدها ، ليقودها إلىالمذبح كما هو المتبع ؛ ولكنالوافه قرر فى اللحظة الأخيرة ألا يفعل ، وأغلق حجرة المكتب عليه ، ورفض أن يساهم فى عمل يعتقده طيشاً مجسما ، فحلت مس وولر مكانه ، وعلى ذراعها اتكأت تشارلوت إلى الكنيسة ؛ وعند ما انتهت مراسيم الزواج ، سافر العروسان إلى أرلندا ، لقضاء شهر العسل فى وطن نيكولز ، و بين أقاربه وأصدقائه .

أحدث الزواج تغيراً عظيما فى أخلاق تشارلوت برونتى ، فانحلت عقدتها النفسية ، وزايلها شعورها بالنقص ، ذلك الشعور الذى أظلم حياتها منذ الطفولة ؛ وأصبحت امرأة أخرى لا تمت إلى الأولى بصلة : فهى كريمة الأخلاق ، حلوة الشمائل ، تحب الناس ، وتعطف على الغير ، وتميل إلى تعرف الفضائل قبل الأخطاء ، وتجد للنقائص عذراً مقبولا ؛

وامتلأت خطاباتها بمديح بعد هجاء ، ورقة بعد غلظة ، ونال نيكولز من هذا المديح نصيب الأسد ، وأصبح فى نظرها أطيب الناس ، وأنبلهم ، وأشجعهم ، وأقربهم إلى الله ، وكلها إحساسات جديدة لم تعرف فى تشارلوت من قبل ، وطبيعى أن تنقلب هكذا ، بعد أن أصابت من الحياة ما كانت تنشده سراً طيلة حياتها .

وغرقت تشارلوت فى حب زوجها إلى مفرق رأسها ، ولم تعد تعرف الحذر فى العاطفة ، وهو ما كانت تنصح به صديقاتها ، وأصبح رأى نيكولز رأيها ، وحكمه حكمها ، ومن يرضى عنهم أصدقاؤها ، ومن لا يحبهم أعداؤها؛ وعند ما يدعوها الواجب إلى زيارة مريض فقير ، تلبى الدعوة مترددة ، لا خوفا على نفسها ، ولكن خشية أن تنقل العدوى إلى زوجها الحبيب .

وفى غمرة هذه السعادة هجرها الوحى ، وتوقف قلمها عن التأليف ، وحاولت الكتابة كثيراً فلم تستطع ، فكانت تمزق الورق بعد أن تكتبه ، ولم تنتج شيئاً جديداً إلا صفحات معدودات من قصة لم تتمها .

وفى أواخر عام ١٨٥٤ خرج الزوجان معاً للسير فى البرارى ، فانهمرت الأمطار فجأة وابتلت ملابس تشارلوت ، وعادت إلى البيت ترتجف لفرط الحمى ، ولم يفارقها السعال بعد ذلك ، فانحطت صحتها ، وزاد ضعفها ونحولها وجاء الطبيب لفحصها فأعلن أنها عوارض الحمل ، فزال القلق ، وعزا الكل مرضها إلى المظاهر الطبيعية لحالتها الراهنة ، ولكن صحة تشارلوت ساءت سريعاً ، فاعتكفت فى فراشها ، وقد عجزت عن كل شىء حتى كتابة

الخطابات ، ولم تخط فى هذه الفترة غير بضع كلمات بالقلم الرصاص .

وفى الأسبوع الثالث من شهر مارس عام ١٨٥٥ زادت وطأة الحمل ، وانهكها التىء والضعف ، فتخاذل قلبها ، وغابت عن وعيها ، واستسلمت إلى هذيان مستمر . وفى اليوم الثلاثين من هذا الشهر تنبهت تشارلوت من غيبوبتها ، وعادت إلى نفسها ، فوجدت الحجرة تموج بأهل الدار ، ورأت الدموع تتساقط من العيون ، وسمعت الأصوات تتردد فى خفوت ، وعرفت أنها تموت ، فزعجت ، ونظرت إلى زوجها بحب وعطف ، وقالت :

— لن أموت ، أليس كذلك ؟ لا أظن أن الله يفرق بيننا ، ونحن فى مثل هذه السعادة الشاملة .

وكانت هذه الجملة هى آخر مالفظت به ، وصعدت روحها إلى بارئها قبل بزوغ الفجر ، وهى فى التاسعة والثلاثين من عمرها ، و بموتها أفل آخر نجم فى سماء أسرة برونتى ، وفقد الأدب الانجليزى عبقرية نادرة ، وموهبة عظيمة ، سيظل نتاجها خالداً على مر الزمن ..

ولم يدع أحد لحضور الجناز ، ودفنت تشارلوت برونتى فى صمت ، ورقدت فى حضرة زوجها وأبيها فى مقبرة الكنيسة بين أمها وأخوتها . و بكتها فتاة عمياء صغيرة ، طالما أحسنت إليها ، وطلبت من الحاضرين أن يقودوها الى الكنيسة بعد ذلك ، لتشترك فى الصلاة على من أحبت .

———

١٩٤٦/٥/١/١٧٠٩




دار المعارف للطباعة والنشر بمصر



الثمن ٢٠ م